

اهداءات ٢٠٠٣

أسرة المرحوم الأستاذ/محمد سعيد البسيوني

الإسكندرية

## مؤلفات للدكتور عثمان أمين

---

- « إحصاء العلوم » للفارابي ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٣١ .
- « L' Humanisme de Schiller » Le Caire 1939.
- « ديكرت » الطبعة الأولى ، ( مكتبة النهضة ، القاهرة ١٩٤٢ ) .
- « Muhammad Abduh, Essai sur ses idées philosophiques et religieuses », Le Caire 1944.
- « خصائص الروح الفرنسي » ( دار النشر هوروس ١٩٤٤ ) .
- « محمد عبده » ( دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٤٤ )
- « الفلسفة الرواقية » ( مكتبة الحانجي ، القاهرة ١٩٤٤ ) .
- « شخصيات ومذاهب فلسفية » ( دار إحياء الكتب العربية ١٩٤٥ ) .
- « ديكرت » ، الطبعة الثانية مزيدة ومنقحة ، القاهرة ١٩٤٦ .
- « دفاع عن العلم » لألير بابيه ( دار إحياء الكتب العربية ١٩٤٦ ) .
- « إحصاء العلوم » للفارابي ، الطبعة الثانية ( دار الفكر العربي ١٩٤٨ ) .
- « التأمّلات في الفلسفة الأولى » لديكرت ، ترجمة مع مقدمة وتعليقات ( مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٥١ ) .
- « مشروع للسلام الدائم » للفيلسوف « كانت » ، ترجمة مع مقدمة وتعليقات ( مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٥٢ ) .
- « نحو جامعات أفضل » ( مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٥٢ ) .
- « محاولات فلسفية » ( مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٥٣ ) .

# محاوَلات فلسفِيَّة

تأليف

الدكتور عثمان أمين

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة الانجلو المصرية

٤

١٩٥٣

مطبعة نجيم  
٢٩ شارع الجيش - ت ٤٧١٩٣  
القاهرة

# محاوالت فلسفیه

الله فتراو

إلى المثل الحيّ للخلق الرّضىّ والطبع الفلسفى

الاستاذ يوسف كرم

أقدم هذه المحاولات، على استحياء

تحيّة ود وإعجاب واحترام واقترءاء .

عثمان أمين

## تقديم

المحاولات الفلسفية التي أقدمها اليوم إلى الجمهور الفلسفي في بلاد الشرق العربي ، قد تناولت موضوعات مختلفة ، ومثلت اتجاهات متنوعة ، وامتدت إلى فترات متباعدة . ولكنني أستطيع أن أقول إنها جميعاً ، على الرغم مما بينها من تفاوت ظاهر ، قد ألفت بينها إحساس واحد وإلهام واحد وغرض واحد : الإبتهاج بطلب المعرفة ، والسعي إلى سبيل الحق ، والاتجاه إلى قيم الروح .

\*\*\*

عصرنا هو عصر العلم ، ويحق لنا أن نتيه به على سائر العصور : فقد جدّد العلم أحوال فكرنا وأحوال وجودنا ؛ كشف لنا عن كثير من أسرار الطبيعة ، ويسّر لنا أن نبسط سلطاننا عليها ؛ وبدّل النظرة القديمة التي كانت تجعل الإنسان غاية لسائر المخلوقات بنظرة جديدة حدّدت للإنسان مكانه من هذا الكون العجيب . هذا التقدم العلمي الهائل قد أذهل بعض الناس ، فتوهموا أن العلم وحده يستطيع أن يعطينا تفسيراً للكائنات كلها ، وأن يزودنا بمعرفة العلل الأولى والأخيرة ، وأن يرسم لنا قاعدة للعمل ،

وأن يهديننا في الحياة سبيلاً سويًا . بل لقد أراد بعض المعجبين  
 بالعلم أن يجعلوا منه ديناً يؤمنون به ويتعصبون له كما لو كان من  
 الممكن أن نجد في مشاهدة الظواهر وتفسير ما بينها من روابط —  
 وهو موضوع العلم — ما يكفي لإشباع حاجات نفوسنا المتطلعة  
 وتحقيق مطامحها اللامتناهية ! وكما لو كان من الممكن أن نجد في العلم  
 عزاءً من فقد آباءنا وأبنائنا ، ودفعاً لهمومنا وأحزاننا !

\*\*\*

على أننا مهما نبلغ من تثقيف الأذهان ومعرفة الأشياء ،  
 فيجب علينا في كل لحظة أن نختار ، ولا بد من أن نراهن على  
 وجودنا كله . يلزمنا أن نقرر هل نبتغي أن نكون من أصدقاء  
 الروح أم من أنصار المادة ، وهل نريد أن نكون من حزب الله أم من  
 حزب الشيطان . وماذا يعنيننا من قوانين النجوم وقوانين الذرات إذا  
 كنا لا نعرف أنفسنا ونجهل سر مصيرنا ، وإذا كنا لا نستطيع  
 الإجابة على السؤال الخطير الذي يوجه إلينا على الدوام : أنعمل  
 لدياننا كأننا نعيش أبداً أم نعمل لآخرتنا كأننا نموت غداً ؟  
 ولقد وضع « شكسبير » هذه المشكلة بعينها حين تساءل على لسان  
 « كملت » : أيكون أم لا يكون ؟ ، ولكنه في الحق سؤال  
 لا يجاب عليه بالذهن الإنساني وحده .

\*\*\*



إننا إذا التفتنا إلى الحياة الباطنة ، ووضعنا مشكلة وجود الإنسان ومصيره على هذا النحو ، وجدنا أنفسنا ، أردنا أم لم نرد ، سائرين في الطريق السلطاني ، طريق الميتافيزيقا ، أقصد تلك الميتافيزيقا الصحيحة التي تطالبنا بأن تؤدي وظيفتنا الإنسانية ، فنحاول أن نفهم كل ما نشاهده في أنفسنا أو خارج أنفسنا ، وأن ننقد معارفنا ونبين قيمتها ، حتى نجد في ذلك الفهم والنقد ما يكفل لأعمالنا هداية ورشاداً . وفي الحق أن كل هاجس من هواجسنا ، وكل خطرة من خطراتنا ، وكل عمل من أعمالنا ينطوي على وجهة نظر أو « موقف » من المواقف الميتافيزيقية ، كما يقول بعض الوجوديين : إنك إذا وقفت على شاطئ البحر ورأيت شخصاً يوشك أن يغرق في الماء ، فأخذت تنظر إليه دون أن تصنع شيئاً ، فليس معنى هذا أنك وقفت منه موقفاً سلبياً فحسب ، بل معناه الأعمق أنك « اخترت » موقفاً معيناً ، أو صممت على أن لا تكون في جانبه . وفي الحق أن الحياة - كما يقول ديكرت - تدعونا دائماً إلى « الاختيار » ، و « التصميم » ، ولا تحمل الإرجاء والتأجيل . والحق أن كل شيء - حتى في مجال العلم والصناعة - يرجع إلى طهارة النفوس ومثانتها . فإذا استمرت تلك الطهارة وتلك المثانة في اضمحلال وذبول ، شهدنا ، نحن أو من يجيئون بعدنا ، حضارتنا بأسرها وقد زهقت روحها وتدهورت إلى آلية

العادات الموروثة ، وربما استحوطت علومنا كلها أدوات جهنمية  
تسخّر للإبادة والتدمير .

\* \* \*

يلوح لنا إذن أن أولئك المسرفين في الإعجاب بالعلم قد نسوا  
أن المعارف العلمية لا تكفي للحياة الإنسانية الصحيحة . وفاتهم أن  
التربية الحديثة ترى أن تنمية القوى الروحية في الفرد أهم بكثير  
من تنمية قواه الذهنية ، لكي يصل إلى درجة «النضج» بمعناه  
الصحيح . ونضج الإنسان هو ذلك التطور الروحي الذي تمارسه  
النفوس الصافية في حياتها ، فتشعر حينئذ بأنها متآزره كل التآزر ،  
لامع أهل الوطن الواحد فحسب ، بل مع جميع أفراد  
الإنسانية ، بصرف النظر عن اختلافهم في اللغات والأديان  
والأجناس والأوطان .

ومتى تهباً للأمم المختلفة أن تدرك هذا المعنى ، أمكنها أن تسير  
قدماً نحو الفكرة الجليلة التي دعا إليها الرواقيون ، في العصر القديم ،  
وأذاعها «كانت» ، في العصر الحديث ، وهي أننا جميعاً رغم  
اختلافنا في الظاهر «مواطنون في عالم واحد» . ولاشك أن الإنسانية  
أحوج ما تكون اليوم إلى أولئك الذين بلغوا مثل هذا النضج  
الروحي ، فتحرروا بتفكيرهم وشعورهم من قيود الزمان والمكان .

هؤلاء الأحرار الناضجون هم المفكرون الذين أطلق الناس عليهم اسم «الحكام»، واختاروا لأنفسهم اسم «الفلاسفة»، أى محبي الحكمة. وشتان بين مكانة الفلاسفة وقادة الفكر في التاريخ وبين مكانة الملوك والسياسيين والفاتحين!

إن الإسكندر المقدوني، ذلك البطل الفاتح الذي مات بعد أن قلب الدول وغزا الأمصار وضم الشعوب، لم تعرف له الدنيا نظيراً في العصر القديم. ولكن ماذا بقي اليوم من أعماله ومحاولاته؟ أما أرسطو مربي الإسكندر فقد ظل معلم الإنسانية أكثر من ألقى سنة. ولا زلنا نجد إلى يومنا هذا من الشعراء والخطباء من يلتمسون عنده قواعد فنههم، كما نجد من السياسيين والأخلاقين من يطلبون عنده أصول الحكم ومبادئ الأخلاق. وأى سياسى في التاريخ الحديث يمكن أن يقارن بالوزير الفرنسي ريشيليو، ذلك السياسى الموهوب الذى استطاع أن يقيم نفسه فى أوربا حاكماً بأمره يتصرف فى السلم والحرب كما يشاء، واستطاع أن يقضى على نظام الأرسقراطية الفرنسية، وأن يغلب المذهب البروتستانتى، وأن يذلّ ملوك النمسا، وأن يرعى نهضة العلوم والآداب! أفستطيع مع ذلك كله أن ننسب إليه أنه مهّد للمستقبل، مقدار ما مهّد له ذلك الفرنسى الآخر «ديكارت»، الذى استطاع - إبان حملة حربية من حملات الشتاء، فى حجرة دافئة

وفي عزلة عن لجب المدن والمعسكرات - أن يكتب صفحات خالدة أعلن فيها أن ماهية النفس هي الفكر ، وأنه لا ينبغي للمرء أن يقبل شيئاً قط على أنه حق ما لم يتبين له بدهاة العقل أنه كذلك ، وأن العقل أعدل الأشياء قسمة بين الناس وأن أنصاء الناس منه إمتساوية ؟ لقد أصبح «المقال في المنهج» دستوراً للفكر الحر الجريء ، وأضحى ديكارت أباً للثورة الإنسانية الكبرى .

\*\*\*

إذا كنا الآن لا نتصور قيام حضارة صحيحة من غير كون للأفكار فيها المكان الأول ، فالتنا لم نُعد نعجب إذا عرفنا أن الكثيرين من «صانعي الأفكار» ، أي الفلاسفة قد استشهدوا في سبيل ما صنعوا من أفكار . والتاريخ السياسي نفسه يثبتنا ببعض ما حاق بالكثيرين منهم من أجل ذلك . لقد حكم اليونانيون القدماء على «انكساغوراس» بالنفي المؤبد ، لأنه تجاسر فصرح بأن فوق آلهة اليونان روحاً مستكفياً بذاته مندبراً لكل شيء . وحكمت محكمة الأثينيين على «سقراط» بأن يتجرع السم ، متهمة إياه بإفساد الشبيبة والمروق من الدين والعبث بقوانين البلاد ، لأنه أعلن الحرب على المتعالمين والمدعين والمهرجين . وافلاطون ألقى به في السجن وأوشك أن يقضى حياته في الأسر . و«أرسطو» اضطر إلى الهرب من أثينا لينجو بحياته من كيد حاسديه .

ولقد أهدر دم السهروردي في حلب ، والحلاج في بغداد ، ونكل  
 بابن رشد في الأندلس . وماذا نقول عن مصير أولئك المفكرين  
 والمجددين الذين مهدوا لعصر النهضة في أوروبا ، أمثال « راموس » ،  
 الذي قتل في ليلة « سان برتلي » ، و« فانييني » الذي أحرق في تولوز ،  
 و« جيوردانو برونو » الذي أحرق في رومة ؟ لقد نهض أولئك  
 وهؤلاء في الشرق والغرب ، أمام بطش القوة وسلطان المادة ،  
 فرفعوا لواء القيم الروحية ، وأدّوا للعقل ما ينبغي له من احترام ،  
 وأيدوا حقوق الضمير الأخلاقي ومطالبه . ولم يثنهم النفي والقتل  
 والتنكيل عن المضي في طريقهم ، ولا عاقهم عن مواصلة بحوثهم  
 وأداء رسالتهم ؛ فكانوا حقاً شهداء على البطولة الرفيعة ، ويمثلين  
 لوثة الروح وثبة قوية دافقة نحو الحقيقة ونحو الحرية  
 ونحو الكرامة .

\*\*\*

لكن من مفاخر عصرنا الحاضر أن صار المستنيرون ينظرون  
 إلى الفلسفة على أنها « حارسة المدينة » على حد تعبير بعض الكتاب  
 المعاصرين<sup>(١)</sup> وساد الاعتقاد بأنه لا يمكن أن تقوم في الأمة ثقافة  
 حقيقة إلا إذا كان نظر الصفوة المختارة من أبنائها متجهاً ، فيما

E. Krakowski, „La Philosophie gardienne de la cite,, (١)  
 Paris 1948.

وراء المعارف والعلوم الخاصة ، إلى قوانين الفكر ومبادئ السلوك وإلا إذا كان تفكيرهم متصلاً بحياة الإنسان العميقة ، فاحصاً عن معناها وقيمتها ومداها . ولعل من فضل ديكرت على الإنسانية المفكرة أن أصبح واضحاً للعيان أن المثل الأعلى للوجود الإنساني هو تحقيق وعي الإنسان لذاته ولمكانه في العالم ؛ بحيث يرد جميع آرائه إلى أفكار واضحة متميزة ، ويمتنع عن أن يقرر أو أن يعمل ما لم يكن معتمداً على أسباب صحيحة مقبولة لديه ولدى الناس جميعاً ، وبحيث يتحرى دائماً عن المسوغ الأخير لمعارفه وأفعاله . وهذا المعنى الحديث من معاني النظر الفلسفي هو المعنى الذي ينبغي أن نحصر كل الحرص على إذاعته وتعميمه ، حتى يتيسر للفلسفة أن تؤدي في المجتمع رسالتها الجليلة . وإن من دواعي الاغتياب أن نلاحظ أن الناس قد أحسوا في هذا العصر أكثر بما أحسوا في أي عصر مضى بأن الفلسفة ، صديقة الحكمة ، يجب أن يكون لها في المدينة مقامها المرموق : وإنها يجب أن تقول اليوم كلمتها فيما يقع بين الشعوب والطبقات من خصومات ومنازعات قد تقرر مصير الحضارة الإنسانية في مستقبل الزمان .

\*\*\*

وبعد فالفلسفة كغيرهم من أفراد الإنسانية ماثون ولكن الفكر الفلسفي خالد لا يموت . وليست « الفلسفة الخالدة »

Philosophia Perennis مذاهب «مغلقة»، ولا أنحاء نظر ضيقة،  
ترضى رغبة الإنسان المتطلع إلى المعرفة، بل هي «طريق قويم  
في الحياة»، كما أرادها حكماء الرواقين، وهي «تأمل للحياة»، كما  
أرادها سينيوزا، وهي فوق هذا كله نعمة روحية تتردد في  
جوانب الحياة الإنسانية كلها فتشيع فيها سلاما وتضفي عليها انسجاما.  
إنها سعى موصول يبذله الإنسان الناضج الواعي لمجاورة نفسه  
ياطلاقها من أسر الأناية ورق الشهوات؛ إنها في جوهرها عمل  
أخلاقي وفعل من أفعال المحبة الخالصة.

عثمان أمين

جامعة القاهرة  
٢٤ مايو ١٩٥٣

## الباب الأول



## الميتافيزيقا

مقدمة في الميتافيزيقا - الميتافيزيقا عند أرسطو - الميتافيزيقا  
عند فلاسفة الإسلام - الميتافيزيقا عند « ديكارت » .  
موقف « كانت » من الميتافيزيقا - الميتافيزيقا و « الوضعيون » .  
الميتافيزيقا عند « برجسون » - أقسام الميتافيزيقا - الرد على  
الوضعيين - خاتمة في مشروعية الميتافيزيقا و ضرورتها .

### مقدمة في الميتافيزيقا :

الميتافيزيقا لفظ يوناني شاع استعماله بصيغته اليونانية  
في اللغات الأوروبية الحديثة ؛ ويرجع الاسم إلى مصنف اسمه  
« أندرونيقوس » ،<sup>(١)</sup> قام بترتيب مؤلفات أرسطو وتصنيفها ،  
فلما وصل إلى أهم المؤلفات الأرسطية التي تتناول البحث  
في الأمور العامة وتنظر في الوجود مطلقاً ، وضعها بعد كتاب  
أرسطو في « علم الطبيعة » وجعل عنوانها عبارة غير محددة معناها  
« ما بعد الطبيعة » ( باليونانية : ميتا تافيزيقا : Métà tà Physikà )  
يعنى بذلك المؤلفات التي تلي « علم الطبيعة » في ترتيب المؤلفات

(١) أندرونيقوس من أهل رودس ، مات حوالي سنة ٦٣ ق . م .

الأرسطية . فكان إطلاق هذا الاسم على ذلك النوع من البحث إطلاقاً عرضياً اعتبارياً ؛ أما الاسم الذي كان يطلقه أرسطو نفسه فليس هو الميتافيزيقا أو ما بعد الطبيعة ، بل هو « الفلسفة الأولى » ( بروتي قيلوسوفيا ) أو « الألهيات » أو « العلم الإلهي » ( تيولوجيا ) . وقد اشتهر اسم « ما بعد الطبيعة » بالتفسير الذي اضطلع به الفيلسوف الأندلسي ابن رشد ، ولدى بعض « المدرسين » من أهل القرن الثالث عشر الميلادي .

#### ما الميتافيزيقا إذن ؟

إن من العسير تعريف الميتافيزيقا تعريفاً دقيقاً ؛ ولكن من الميسور أن نعطي فكرة عن معناها بذكر بعض المشكلات التي تبحث فيها : فإننا إذا اعتبرنا أن العلم لا يستطيع وحده أن يشبع رغبة الإنسان في الاستطلاع والمعرفة ، وأن القضايا العلمية هي دائماً نسبية جزئية ، فقد اتضح أن طائفة كبيرة من المسائل العامة المجردة العامضة التي تحتاج إلى أن تُدرس وإلى أن توجد لها حلول ، تظل « معلقة » ، إن صح هذا القول<sup>(٢)</sup> ، لأن العلوم الخاصة قد تخلت عنها فلم تقطع فيها برأى . وهذه المسائل المعلقة هي موضوع البحث الميتافيزيقي : وهي تدور حول الوجود في

(٢) قازن : وليم جيمس : « مدخل إلى الفلسفة » ، ترجمة فرنسية ، باريس سنة ١٩٢٦ ص ٣٧ .

جميع أنواعه وبأعم معانيه ، أو « الوجود بإطلاق » ، كما يقول ابن رشد - (٣) وتتناول الطبيعة ، ومصير الموجودات ، وماهية الحق ، والمطلق ، والجوهر ، والعرض ، والواحد ، والكثرة ، والذات والغير ، والقوة والفعل ، والمتقدم والمتأخر ، وما إلى ذلك.

الميتافيزيقا عند أرسطو :

وبناء على ما تقدم أمكن تعريف الميتافيزيقا تعريفاً واسعاً ، على نحو ما عرفها أرسطو حين قال إنها « النظر في الموجود بما هو موجود ، (٤) . وقد قال أرسطو : « بما هو موجود ، للفرقة بين الميتافيزيقا وبين العلوم الجزئية التي تنظر في الموجود «بحال ما» كالعالم الرياضى الناظر فى الكمية مجردة من الهوىلى ، والعلم الطبيعى الناظر فى الموجود المتغير . فقد لاحظ أرسطو أن كل علم إنما ينظر فى موضوع خاص هو نوع من أنواع الوجود : فالعلم الرياضى هو علم الكم ؛ وعلم الطبيعة هو « هذا النوع من الوجود الذى يحمل فى ذاته مبدأ حركته ، ؛ والموجود من حيث يتبدى للحواس أو للوجدان النفسى إنما تنظر فيه العلوم الجزئية المختلفة ،

(٣) ابن رشد : « كتاب ما بعد الطبيعة » ( ضمن « رسائل ابن رشد » طبع

دائرة المعارف العثمانية بجيدر آباد الدكن سنة ١٩٤٧ ص ٤ )

(٤) أرسطو : « ما بعد الطبيعة » ص ٢١١٠٠٥ (ترجمة فرنسية بقلم تريكو .

باريس ١٩٣٣ ، الجزء الأول ص ١١٨ ) .

لا سيما العلوم التجريبية وعلم النفس . أما الفلسفة الأولى فتريد أن تتجاوز هذا النظر الجزئي ، لتصل إلى الموجود من حيث هو موجود ، وإلى الموجود المطلق (٥) .

وبهذا المعنى قال ابن رشد إن ما بعد الطبيعة علم غرضه « النظر في الموجود بما هو موجود ، وفي جميع أنواعه ، إلى أن ينتهي إلى موضوعات الصنائع الجزئية ، وفي الواحق الذاتية له ، وتوفية (اقرأ : وترقية) جميع ذلك إلى أسبابه الأول ، وهي الأمور المفارقة، (٦) (أي الأمور الروحية) .

وقد عرف أرسطو الميتافيزيقا أيضا بأنها « النظر في العلل الأولى وفي المبادئ الأولى » (٧) : العلم يفسر الظواهر بظواهر أخرى ، أي بعلة ثانية . أما الميتافيزيقا فتريد أن تنفذ في معرفة « العلل » إلى أبعد مما تنفذ العلوم الأخرى ؛ لأنها تسعى إلى بلوغ العلة « الأولى » ، أو العلل الأولى ، أي العلل المستكفية بذاتها والتي ليست معلولات لعلل أخرى . وكذلك المبدأ « الأول » أو المبادئ « الأولى » ، أي المبادئ التي يعتمد عليها غيرها ومنها تستمد جميع

(٥) أرسطو : « ما بعد الطبيعة » ص ١٠٢٥ ب ٧ (ترجمة فرنسية ج ١ ص ٢٢٤) .

(٦) ابن رشد : « كتاب ما بعد الطبيعة » (طبع دائرة المعارف العثمانية ص ٤) .

(٧) أرسطو : « ما بعد الطبيعة » ص ٩٨٢ ب ٩ (ترجمة فرنسية ج ١ ص ٨) .

القضايا الأخرى : وهي « الله ، عند بعض الفلاسفة ، أو المادة ، عند الماديين .

تلك نظرة أرسطو إلى الفلسفة الأولى ؛ وهي أساس للنظرة التقليدية إلى الميتافيزيقا .

الفلسفة هي العلم الكلى الذى « ينظر فى الشئ العام لجميع الموجودات ، فتتناول حينئذ موضوعا يتجاوز العالم الجسمانى أو العالم الطبيعى المحسوس . وفى استطاعة الفلسفة ، بل من الواجب عليها ، أن ترتفع إلى ما هو أعلى من للعالم الطبيعى المحسوس . ولما كان موضوعها هو وجود الأشياء على العموم ، فقد وجب عليها أن تدرس هذا الوجود ، لا من حيث هو جسمانى محسوس أو متحرك ، بل من حيث هو موجود ؛ وبعبارة أخرى يجب أن تدرس الوجود على جهة الشمول والإطلاق ، وعلى نحو ما يمكن أن يكون ، لا فى الأشياء المحسوسة فحسب ، بل وفى الأشياء الموجودة من غير أن تكون جسمانية أوحسية أو متحركة ، أى فى الأشياء الروحية الخالصة : وهذا هو موضوع « الفلسفة الأولى ، أو الميتافيزيقا عند أرسطو (٨) .

(٨) انظر تفصيل ذلك فى : يوسف كرم : « تاريخ الفلسفة اليونانية » ، الطبعة الثانية سنة ١٩٤٦ س ١٦٨ وما بعدها ؛ ثم فى كتاب الفارابى : « الإبانة عن غرض أرسطوطاليس فى كتاب ما بعد الطبيعة » ( ضمن : الفارابى : « كتاب المجموع » القاهرة ١٩٠٧ س ٤٠ وما بعدها ) .

الميتافيزيقا عند فلاسفة الإسلام :

وقد أطلق الكندي على الميتافيزيقا اسم « الفلسفة الأولى » ، وهو الاسم الذي استعمله أرسطو كما ذكرنا . ولكن الكندي جعل موضوعها « علم الحق الأول » ، فقال : « وأشرف الفلسفة وأعلاها مرتبة الفلسفة الأولى ، أعنى علم الحق الأول ، الذي هو علة كل حق . ولذلك يجب أن يكون الفيلسوف التام الأشرف هو المرء المحيط بهذا العلم الأشرف ، لأن علم العلة أشرف من علم المعلوم ، <sup>(٩)</sup> . وقد سماها الكندي أيضا « علم الربوبية » ، إذ قال كما روى ابن نباته : « علوم الفلسفة ثلاثة : فأولها العلم الرياضى فى التعليم ، وهو أوسطها فى الطبع ، والثانى علم الطبيعيات ، وهو أسفلها فى الطبع ، والثالث علم الربوبية ، وهو أعلاها فى الطبع ، <sup>(١٠)</sup> . ولعل نظرة الكندي هذه هى الأصل فيما جرى عليه الفارابى وابن سينا وغيرهما من فلاسفة الإسلام من تسمية الميتافيزيقا باسم « العلم الإلهى » . قال الفارابى : « والعلم الإلهى ينقسم إلى ثلاثة أجزاء : أحدها يُفحص فيه عن الموجودات والأشياء التى تعرض لها بما هى موجودات . والثانى يُفحص فيه عن مبادئ البراهين

(٩) الكندي : « رسالة إلى المعتصم بالله فى الفلسفة الأولى » . (طبع أحمد نژاد الأهوانى سنة ١٩٤٨ م ص ٧٨) .

(١٠) ابن نباته : « سرح العيون » ص ١٢٥ .

في العلوم النظرية الجزئية ، وهي التي يتفرد كل علم منها بالنظر في موجود خاص ، مثل المنطق والهندسة والعدد وباقي العلوم الجزئية الأخرى التي تشاكل هذه العلوم ... والجزء الثالث يفحص فيه عن الموجودات التي ليست بأجسام ولا في أجسام ، (١١) .

وقد عرف ابن سينا الميتافيزيقا بأنها « العلم الكلي ، وهو العلم الإلهي ، والعلم الناظر فيما وراء الطبيعة . وموضوعه الموجود المطلق . والمطلوب فيه المبادئ العامة واللواحق العامة ، (١٢) .

والجرجاني يعرف العلم الإلهي بأنه « علم باحث عن أحوال الموجودات التي لا تفتقر في وجودها إلى المادة ، (١٣) .

وظاهر مما تقدم أن تعريفات فلاسفة الاسلام للميتافيزيقا أو الفلسفة الأولى لم تخرج في جملتها عن التعريفات المشهورة التي ذكرناها لأرسطو ، وإن كان ابن سينا قد تميز بتعريف لا يخلو من خلط وتكرار لا معنى له ، حين ذكر في موضع آخر أن موضوع الفلسفة الأولى هو « الموجود المطلق بما هو موجود مطلق ، (١٤) .

(١١) الفارابي : « إحصاء العلوم » ( طبع عثمان أمين ، الطبعة الثانية سنة ١٩٤٩ م ص ٩٩ ) .

(١٢) ابن سينا : « النجاة » ص ١٥٨ .

(١٣) الجرجاني : « التعريفات » ص ١٠٤ .

(١٤) ابن سينا : « النجاة » سنة ١٩١٣ م ص ١١٤ .

الميتافيزيقا عند ديكارت :

أراد ديكارت أن يرفع الفلسفة – التي هي عنده دراسة الحكمة – إلى مقام حكمة بشرية ، بمعنى أنها حكمة ليست مبنوثة فينا بوحى خارق للطبيعة ، مجاوز للنور البشرى ، وأنها ليست عفوية خالية من الروية ، وإنما هي حكمة قائمة على مبادئ مكتسبة بالتأمل والنظر ، فهي حكمة الإنسان من حيث هو إنسان .

ولقد صرح ديكارت في مقدمة الترجمة الفرنسية لكتاب « مبادئ الفلسفة ، بأن الفلسفة واحدة غير مجزأة ، ولكنها تنقسم لسهولة التعليم أقساماً عدة : « القسم الأول الميتافيزيقا ، وهي تشمل مبادئ المعرفة التي من بينها تفسير أهم صفات الله ، وروحانية نفوسنا ، وجميع المعاني الواضحة البسيطة التي نجدها فينا ؛ والثاني الفيزيقا ، ويُنظر فيها على العموم ، بعد إيجاد المبادئ الصحيحة للأشياء المادية ، كيف نشأ الكون كله ، ثم على الخصوص ما طبيعة هذه الأرض وجميع الأجسام التي توجد عليها ، كالهواء والماء والنار والمغناطيس . وبعد ذلك نحتاج إلى أن نفحص أيضاً على الخصوص عن طبيعة النبات ، وطبيعة الحيوان ، وبالأخص عن طبيعة الإنسان ، لكي نستطيع بعد ذلك أن



تجد العلوم الأخرى التي فيها منفعة له ، . فالفلسفة عند ديكارت إنما تبدأ بالميتافيزيقا أى بالفلسفة الأولى . والميتافيزيقا عنده بمثابة الأصل فى العلوم الفلسفية . وقد عبر الفيلسوف عن ذلك بتشبيه مشهور ، فقال : « الفلسفة كشجرة جذورها الميتافيزيقا وجذعها الفيزيقا ، والفروع التي تنبثق من ذلك الجذع هى سائر العلوم الأخرى التي مرجعها إلى ثلاثة علوم رئيسية ، هى الطب والميكانيكا والأخلاق ، وأقصد الأخلاق الأرفع والأكمل ، تلك التي تفترض إحاطة تامة بالعلوم الأخرى ، ولذلك كانت هى أقصى مرتبة من مراتب الحكمة ، (١٥) .

ومن المحقق أن ديكارت إذ جعل الميتافيزيقا مدخلا إلى الفيزيقا وإلى غيرها من العلوم ، وجعل منها الجزء الأول لا الأخير والبداية لا النهاية ، والأساس لا القمة فى الفلسفة ، قد أحدث انقلاباً له شأن كبير فى تاريخ المعرفة البشرية : فلم تعد الفلسفة عبارة عن الارتفاع من العالم المحسوس إلى العالم المعقول ، ومن عالم الشهادة إلى عالم الغيب ، ومن الدنيا إلى الله ، كما كان شأنها عند المدرسين ، وإنما أصبحت الفلسفة عند ديكارت عبارة عن تفسير الكون بواسطة المبادئ الأولى والأصول العامة التي

(١٥) ديكارت : « مبادئ الفلسفة » ، المقدمة ( طبع ليارس ٢٠-٢١ )

تكفلها لنا الميتافيزيقا . ودعامة الفلسفة عنده هي الفكر المدرك لذاته والذي هو في ذاته مدرك الموجود الكامل أى الله ، منبع كل وجود والعنا من لكل حقيقة (١٦) .

ومعنى هذا أننا إذا وضعنا الميتافيزيقا استطعنا أن نستنبط منها سائر ما عداها : « ورأيت أن وجود هذا الفكر هو المبدأ الأول ، واستنبطت منه المبادئ التالية : أن هنالك إلهاً هو خالق كل ما فى العالم ، ولما كان هو مصدر كل حقيقة ، فإنه لم يخلق أذهاننا بحيث تكون عرضة للخطأ فيما تقرر من أحكام على الأشياء التى تتصورها تصورها واضحاً جداً ومتميزاً جداً . تلك هى المبادئ التى اصطنعتها فى الأشياء اللامادية أو الميتافيزيقية ومنها استنبطت بتمام الوضوح مبادئ الأشياء الجسمانية أو الفيزيقية ، .

قد كان المدرسيون يعرفون الميتافيزيقا بما عرفها به أرسطو حين قال إنها « العلم بالموجود بما هو موجود ، أى أنها العلم بالخصائص الجوهرية للوجود ، ولكن هذا التصور المدرسى للميتافيزيقا لا يقبله ديكارت . إن المشكلة الكبرى عنده هى أن

(١٦) راجع : عثمان أمين : « ديكارت » ، الطبعة الثانية ، سنة ١٩٤٦

تقنين متى يسوغ لنا إثبات الوجود، وبعبارة أخرى إن الميتافيزيقا الديكارتية إنما تهتم بالذات التي تعرف والتي تقرر الوجود أكثر مما تهتم بالموضوع الذي يمكن أن يُعرف أو يكون موجودا .

وما دام ديكارت لا يستطيع أن يحدد الميتافيزيقا من جهة الموضوعات التي تتناولها، فلا بد له من أن يميزها بعلامة ذاتية تحمل طابع « الذات العارفة » . وإذا كان الأمر كذلك فالميتافيزيقا عنده هي أشد العلوم يقيناً؛ والذي يضفي على الميتافيزيقا يقينها ليس هو طبيعة موضوعها، بل الطريق الذي يسلكه الذهن في طلبها .

فالميتافيزيقا عند ديكارت علم دقيق يمكن إثبات قضاياه يقين شبيه باليقين الرياضي : « ليس في الميتافيزيقا شيء إلا أعتقد أنه واضح كل الوضوح للنور الفطري ، ويمكن أن يبرهن عليه برهنة دقيقة ،<sup>(١٧)</sup> بل إن البراهين الميتافيزيقية أكثر يقيناً من البراهين الرياضية ؛ لأن الميتافيزيقا من بين العلوم الإنسانية الخالصة أكثرها إمكانا للبرهنة العقلية : فوجود الله وطبيعة الذهن والمادة يمكن إثباتها ببراهين هي غاية في الدقة والوثوق . ويضاف إلى هذا أن الميتافيزيقا يمكن أن يتعقلها جميع من يهتمون ببراهينها

(١٧) « مؤلفات ديكارت » ، طبع أدام وتانرى ، م ٣ س ٢٨٤ .

اهتماماً كافياً ، وينظرون في أدلتها ، بأذهان قد تجردت عن الحواس ، (١٨) .

ولما كانت الميتافيزيقا الديكارتية تسيطر عليها مشكلة الوصول إلى اليقين ، فهي ليست نظرية في وجود النفس واثقه والعالم فحسب ، إنما هي إعداد للمعرفة ، وللمعرفة العلمية على وجه الخصوص (١٩) .

### موقف كانت من الميتافيزيقا :

منذ ظهور « كانت » على مسرح الفلسفة حددت الميتافيزيقا مشكلة جديدة هي البحث في قيمة المعرفة الإنسانية وفي حدودها ومداهها ، وفي العلاقات بين « الذات » ، المفكرة و « الموضوع » ، الخارجي ، وبين الفكر والوجود . ومسألة المسائل الميتافيزيقية في عصرنا هذا هي كيف يتم الانتقال من الذات إلى الموضوع ، وكيف يتيسر للفكر أن يلتئم مع الواقع . إن أحداً لا يتارع اليوم فيما للمك المسألة من شأن خطير . ومع ذلك فإن الميتافيزيقيين من القدماء والمحدثين إلى أيام « كانت » ، لم يخطر لهم على العموم أن

(١٨) « مؤلفات ديكارت » ، طبع أ - ت . م . ١ ص ٣٥١ .

(١٩) راجع تقديمنا لترجمتنا العربية لكتاب « التأملات في الفلسفة الأولى »

لديكارت ، القاهرة ١٩٥١ ص ١٣ بع .

يجعلوا لها من نظرهم المقام اللائق بها : والسبب في هذا أن أولئك الميتافيزيقيين كانوا « قطعيين » ( دُجماطيقيين ) أى أنهم كانوا يعتقدون اعتقاداً لا يستند على تمحيص ودليل بأن العقل الإنساني « مجانس للوجود » ، إذا صح هذا التعبير ؛ وكانوا يقطعون بأن الذهن مجعول للحقيقة ، وأنه على يقين من بلوغها بشروط يحددها المنطق . ولذلك اقتصرت نظرية المعرفة عندهم على نقض دعاوى الشكك الذين ذهبوا إلى أن العقل عاجز عن إقامة أمر ثابت ، وعاجز عن الإتيان بقضية إيجابية لا تنقضها قضية أخرى .

لكن بجيء « كانت » غير وجه الأمور : فقد استعاض في الميتافيزيقا عن المنهج « القطعي » ، ( الدجماطيقي ) بالمنهج « النقدي » ، وصرح الفيلسوف ، خلافاً لمن سبقوه من « قطعيين » ، وشكك (٢٠) ، بأن العقل — على فرض قدرته على إقامة معرفة متسقة من حيث المنطق — لا يستطيع أن يعطينا عن طبيعة الأشياء ذاتها إلا نظرات واهمة ، وأن ملاءمة العقل للوجود ، تلك الملاءمة التي سلم بها الفلاسفة حتى ذلك الحين من غير مناقشة ،

(٢٠) مع استثناء « هيوم » الذي أيقظ « كانت » من سباته الدجماطيقي ، باعتراف « كانت » نفسه ( كانت : « التمهيدات لكل ميتافيزيقا مستقبلية تريد أن تكون علماً » ترجمة فرنسية بقلم جيلان ، باريس ١٩٣٠ ص ١٣ ) .

إنما هي افتراض لا مسوغ له ؛ بل هي خطأ بيّن صريح .  
 وبهذا الموقف أخذت مشكلة المعرفة عند « كانت » ، صفة  
 المشكلة الممهدة لكل ميتافيزيقا ، ومنذ ذلك الحين أصبح موضوع  
 الميتافيزيقا كما يقول الفيلسوف نفسه هو « تحديد مجال العقل الخالص ،  
 ورسم حدوده على جهة الاستيعاب ، وطبقاً لمبادئ كلية شاملة .  
 وهذا ما تحتاج الميتافيزيقا إليه ، لكي تشيّد بناءها وفقاً لمنهج  
 يمكن الاطمئنان إليه ، » (٢١) .

بهذا وضع « كانت » ، مسألة قيمة المعرفة والمشكلة النقدية  
 بأسرها : فالفيلسوف قبل أن ينظر نظراً ميتافيزيقياً في النفس  
 وفي العالم وفي الله ، وفيما إذا كان الوجود الصحيح للأشياء  
 سهل المنال ، لا بد له في نظره « كانت » ، أن يبحث أولاً هل الميتافيزيقا  
 نفسها ممكنة أم أنها حديث خرافة ساقه الوهم . وهذا البحث نفسه ،  
 وبعبارة أخرى نقد المعرفة ، هو المدخل أو « التمهيد » ، اللازم  
 لكل ميتافيزيقا تريد أن تكون علماً جديراً بهذا الاسم .

وإذن فمن الخطأ البيّن أن يُظن أن كانت شرع في هدم كل  
 ميتافيزيقا أيا كان نوعها . وكيف يصح ذلك الظن مع أن كانت

(٢١) كانت : « التمهيدات لكل ميتافيزيقا مستقبلية تريد أن تكون علماً »  
 ( ترجمة فرنسية بقلم جيلان ، باريس ١٦٣٠ ص ١٤ ) .

نفسه قد كتب سنة ١٧٩١ يقول : « إن الفلسفة الترنسندنتالية التي هي نقد العقل الخالص ، غايتها إقامة ميتافيزيقا ، تكون غايتها بدورها — وهي الغاية القصوى للعقل الخالص — أن ترفع هذه الملكة من حدود الأمور الحسية إلى مجال أمور ما فوق الحس ، (٢٢) وصرح أيضا في كتاب « المنطق » المنشور سنة ١٨٠٠ بأن « الميتافيزيقا هي الفلسفة الحقيقية ، هي الفلسفة عينها » (٢٣) وأشار في تصديره للطبعة الأولى لكتاب « نقد العقل الخالص » إلى أنه ويأمل أن يُخرج للناس مذهباً كاملاً في العقل النظري الخالص ، وأن ينشره بعنوان « ميتافيزيقا الطبيعة » (٢٤) (والطبيعة في الاصطلاح الكاتبي معناها « كل ما هو موجود »).

وإذن فلا محل لمثل تلك الظنون عن موقف كانت من الميتافيزيقا: فمن الحقائق التي تثب أمام الأبصار أن كانت نفسه قد نهض للعمل على « إحياء الميتافيزيقا وبعثها بعثاً جديداً على نحو مبتكر لم يُسبق إليه » ورأى أن ذلك العمل « شيءٌ لا مناص من وقوعه على

(٢٢) رويسن : « كانت » ، الطبعة الثالثة ، باريس سنة ١٩٢٩ ص ١٦٢

(٢٣) كانت : « المنطق » ترجمة فرنسية ( بقلم تيسو ، ص ٤٠ ، وترجمة

انجليزية بقلم أبوت ، ص ٢٣ ) .

(٢٤) كانت : « نقد العقل الخالص » ( ترجمة انجليزية بقلم نورمان كيب سمث

سنة ١٩٣٣ ص ١٤ ؛ وترجمة فرنسية بقلم بارني ، ص ١٣ ) .

الرغم من العوائق التي يمكن أن تقام في سبيله فترة من الزمان ، ،  
 وأن « طلب الميتافيزيقا لا ينقطع أبداً : لأن مصالح العقل الإنساني  
 الشامل قد ارتبطت بها ارتباطاً وثيق العرى ، (٢٥) . وأكثر من هذا  
 إن كانت نفسه شرع يشيد ميتافيزيقا ، بل « ميتافيزيقا مزدوجة ،  
 كما قال بوترو (٢٦) : فإن « التمهيدات لكل ميتافيزيقا مستقبلة تريد  
 أن تكون علما ، هو العنوان الذي اختاره لمؤلف كتبه في الفترة  
 بين الطبعتين الأولى والثانية لكتاب « نقد العقل الخالص » .  
 وقد عرفنا أنه وضع أساس « ميتافيزيقا الطبيعة » ، أعنى البحث عن  
 العناصر « الأولية » المتضمنة في معرفة الظواهر من حيث هي كذلك .  
 ثم شيد ميتافيزيقا « أخرى » ، وهي « ميتافيزيقا الأخلاق والعادات » (٢٧) ،  
 ميتافيزيقا العمل ، أو نظام الشروط الأولية للتصرفات الأخلاقية .  
 لم يُرد كانت إذن هدم الميتافيزيقا على الإطلاق ، بل أراد  
 هدم الميتافيزيقا التقليدية ، أي الميتافيزيقا « القطعية » ، (الديجاطيقية)  
 التي سادت في رأيه بلا منازع ، وقصده من ذلك أن يقيم محلها  
 ميتافيزيقا جديدة ، ميتافيزيقا نقدية .

(٢٥) كانت : « التمهيدات لكل ميتافيزيقا .. » ترجمة جيلان ، ص ٩ .

(٢٦) بوترو : « فلسفة كانت » ، باريس سنة ١٩٢٦ ، ص ١٣٤ .

(٢٧) راجع : كانت : « أسس ميتافيزيقا الأخلاق والعادات » (ترجمة فرنسية

بقلم دلبوس ، وترجمة انجليزية بقلم بيتون) .



والميتافيزيقا « القطعية » ، في صميمها ميتافيزيقا « متعالية » ، تتخطى كل تجربة : وكأننا في نظر كانت ، نسكن جزيرة محاطة من جميع جهاتها بمحيط شاسع لا حدود له وتعوزنا فيه المعالم والشارات لهداية الطريق . والميتافيزيقا تسبح في هذا المحيط مدعية أنها ماضية في طريقها (٢٨) ١

وهذه الميتافيزيقا القطعية التي أراد كانت أن يبين تهاافتها ، هي في نظره مجموعة من البراهين تريد أن تتخطى الحس إلى ما فوق الحس ، وان ننتقل من الذات إلى الموضوع ، ومن شيء إلى آخر يختلف عنه في طبيعته كل الاختلاف : وهذا ما بسطه في باب « الجدل الترنسندنتالي » ، محاولاً أن يبين حدود الميتافيزيقا الصحيحة كما توجد بالفعل في الذهن الإنساني .

إن « نقد العقل الخالص » ، عند كانت قد حدد مقدماً مجال الميتافيزيقا . وبهذا الصدد اشتغل النقد بعمليات ثلاث متعاقبة :

١ - الأولى نظرية العلم ، التي تثبت الطبيعة « الظاهرية » ، (Phénoménale) للعالم الفيزيقي ، ومن ثم تهدم الدعوى المادية التي تريد أن تجعل الأجسام « أشياء في ذاتها » ، وتقيم مكانها المثالية « الترنسندنتالية » ، أي المثالية « الأولية الجوانية » .

٢ - الثانية هي القضاء على الميتافيزيقا «القطعية»، أو الميتافيزيقا «المتعالية»، التي تريد عبثاً أن تنقل «الفهم»، إلى مجال الأشياء التي فوق الحس .

٣ - الثالثة تنكر على العقل «النظري»، ما يزعمه من القدرة على بلوغ المطلق، ولكنها تسلم مع ذلك بأن فيه ميلاً شديداً إلى أن يتصور «أولياً»، (على جهة الشمول والضرورة وبمعزل عن التجزئة) وحدة الواقع في نظام وكل، وميلاً إلى أن يبني عالماً وراء العالم الحسى . ولكن يبقى مفهوماً أن ذلك البناء ليس له إلا قيمة مثالية : فالله والنفس لا يمكن بحال أن يعتبرا «أشياء»، أو «موضوعات»، يستطيع الفهم أن يدركها كما يدرك الموضوعات الطبيعية . وإذ بينا هذه القيود أو التحفظات فلاشئ يمنع العقل من أن يتصور عالماً معقولاً : فليس العقل كالفهم محدداً في استعماله بالحساسية بل يحدد «الحساسية»، ولا يتحدد بها .

فموضوع الميتافيزيقا ومنهجها عند كانت هو أن تبني - بالعقل - عالماً مثالياً، يكون أشبه بامتداد للعالم الطبيعي (الظاهري) امتداداً لا نهاية له، ولكنها تمنع الفهم من أن يحكم على القيمة الموضوعية لهذا البناء (٢٩) .

والخلاصة أن كانت جعل النقد ، باعتباره بياناً لمجال العقل الخالص وحدوده ، بمثابة المدخل إلى الميتافيزيقا . وهو قد صرح بأنه أقام ميتافيزيقا نهائية ، كما أن أرسطو قد أقام المنطق علماً تاماً دفعة واحدة . وبما أن المنطق ليس علماً بالمعنى الدقيق ، بل مدخلاً إلى العلم ، فالميتافيزيقا — مفسرة على نحو ما ذكرنا — هي من بين العلوم جميعاً ، العلم الوحيد الذي يستطيع مباشرة أن يبلغ هذه الدرجة المنشودة من التمام (٣٠) .

وكيف لا والميتافيزيقا تقضى بها نفس طبيعة العقل ؟ انها موجودة « باعتبارها استعداداً طبيعياً ، (Naturanlage) . وإذن فمسائلها ليست متكلفة مفتعلة :

« وإن الميتافيزيقا ، باعتبارها استعداداً طبيعياً ، موجودة ثابتة : لأن الفكر الإنساني يسير قدماً . . . ، تسوقه حاجة داخلية نحو أسئلة لا يجيب عنها استعمال العقل استعمالاً تجريبياً ولا تجيب عنها مبادئ مستمدة من ذلك الاستعمال . وإذن فقد وُجد دائماً ، وسيظل يوجد دائماً - لدى الناس جميعاً ومتى نضجت عقولهم وتهيأت للنظر والتأمل - نوع من الميتافيزيقا ، (٣١) .

(٣٠) نورمان كيب سمث : « شرح لكتاب نقد العقل الخالص لكانت»

الطبعة الثانية ، سنة ١٩٣٠ ص ١٠

(٣١) المصدر السابق ، ص ١٢ - ١٣ .

على أن « كانت » كان حريصاً مع هذا كله على أن يميز بين ضربين من الميتافيزيقا : الضرب الأول هو الميتافيزيقا « البائنة » أو « البرّانية » ، أو « المتعالية » ، ( transcendente ) وهي الميتافيزيقا التقليدية « القطعية » ، التي تقيم بناءها كله خارج التجربة وبمعزل عنها . والثاني هو الميتافيزيقيا « الترנסدنتالية » ، ( transcendente ) أو « الجوانية » ، أو « الباطنة » ، أو « الكامنة » ، ( Immanente ) (٣٢) ، وهي الميتافيزيقا الكاتية التي تحدد العناصر « الأولية » ، التي هي عماد التجربة وشرط ضروري لها ، والتي هي بالتالي « كامنة » ، أو « باطنة » ، للتجربة ، ولا يمكن أن تكون متعالية عليها ولا مجاوزة لها .

ونتيجة الفحص النقدي كله هو إثبات استحالة كل ميتافيزيقا « بائنة » ، أو « برّانية » ، أو « متعالية » ، وبيان مشروعيتها بل ضرورة الميتافيزيقا « الترנסدنتالية » ، أي الميتافيزيقا « الباطنة » ، أو « الكامنة » ، أو « الجوانية » ، (٣٣) .

(٣٢) كانت : « التمهيدات لكل ميتافيزيقا مستقبلة . . » ( ترجمة جيلان ، ص ١٧٠ بالهامش وترجمة كاروس هامش ص ١٥٠ ) .

(٣٣) نورمان كيب سميت : « شرح لكتاب نقد العقل الحاصل لكانت » الصفحات ٢٦ - ٢٧ ؛ ٦٦ - ٧٠ ؛ ٢٤٤ - ٢٤٥ ؛ ٢٥٧ - ٢٥٨ .

الميتافيزيقا و«الوضعيون» :

يعتقد كثير من العلماء وفريق من الفلاسفة الوضعيين أن العلم كاف لا شباع حاجة الذهن البشرى إلى المعرفة وأنه ليس علينا أن نلتمس وراءه شيئاً . ولكن المذهب الوضعي في صميمه مذهب يزعم الاستغناء عن كل ميتافيزيقا ، ويرى أن الموجود — كما قال لابلاس عن الله — هو افتراض من الافتراضات التي لا غناء فيها .

ولقد تعرض لتلك المشكلة «أوجست كونت» في كتابه «دروس في الفلسفة الوضعية» (١٨٣٠ - ١٨٤٢) ، وحلها حلا سلبياً ، فقال :

إن الإنسانية تمر في حياتها الفكرية بأطوار ثلاثة : «الطور اللاهوتي» الذي هو بداية الإدراك الإنساني : وفيه يميل الإنسان إلى تفسير كل شيء بفعل فاعل يعلو على الطبيعة ويؤثر أثراً تعسفياً مباشراً أو بواسطة . ثم يلي هذا الطور «الطور الميتافيزيقي» : وفيه يفسر الإنسان الكون ، مستعيضاً عن الأشخاص الحارقة للطبيعة بقوى أو كائنات مجردة أشبه بالطلاسم . . . ويقول «كونت» إن هذا الطور ليس إلا طور انتقال يتلوه طور ثالث هو طور النضج العقلي ، ويسميه «الطور الوضعي» وهو المرحلة الحاسمة الثابتة من مراحل الذهن الإنساني ،

ويستعيز الإنسان فيها عن المطلب البعيد المنال ، مطلب العلل والغايات ، بدراسة الظواهر وأحوال وجودها وقوانين ارتباطها. فالطور الميتافيزيقي - في نظر « أوجست كونت » - ليس إلا مرحلة من مراحل الفكر قد تجاوزتها الإنسانية اليوم ، وهي عبارة عن الاستعاضة عن الخيال بالتجريد ، وعن الوسائط الحارقة للطبيعة - وهي الوسائط التي كان الفكر الديني يفسر بها الكون - بالطلاسم أو المجررات المشخصة ، مثل « الفضائل الحقية ، و« القوى الحيوية ، و« الصور الجوهرية ، وما إلى ذلك ...

والميتافيزيقي - في نظره - كاللاهوتي رجل يزعم النفاذ إلى « كنه الموجودات وإلى العلل الأولى وإلى العلل الغائية لجميع الأشياء التي تسترعى انتباهه » ، ويريد الميتافيزيقي بالإجمال الوصول إلى « المعارف المطلقة » ، لكن « الطور الوضعي ، وحده هو الطور الذي يتبين فيه الذهن البشري استحالة الحصول على مثل تلك المعارف ، فيتخلى عن البحث عن أصل العالم وغايته وعن معرفة ماهيات الأشياء وعللها ومصائرهما (٣٤) .

ويحاول « كونت » ، أن يقضى على تلك الأنظار كلها بالانزواء في مجال العاطفة والعقيدة والهوى ، ويعلن أن كل بحث فيما خلا

(٣٤) أوجست كونت: « دروس في الفلسفة الوضعية » ، الدرس الأول .

القوانين — يعنى العلاقات الثابتة بين الظواهر — « بحث بعيد المنال ولا معنى له » ، وينتهى بوضع قاعدة يقرر فيها أن « كل قضية لا يمكن ردها إلى مجرد الأدلاء بواقعة من الوقائع هي قضية ليس لها معنى ولا محصل مفهوم »<sup>(٣٥)</sup> وإذن فموضوع الميتافيزيقا في نظر « اوجست كونت » هو البحث عما لا يمكن معرفته ، أو كما يقول « ليتريه » - أكبر تلامذة كونت - هو محيط يرتطم بشاطئنا ولا نملك له مركبا ولا شراعا ،<sup>(٣٦)</sup> .

الميتافيزيقا عند « برجسون » :

لهنرى برجسون مقال عنوانه « المدخل إلى الميتافيزيقا » نشره في عصر كان فيه المذهب الكاتى النقدى والمذهب القطعى عند أتباع كانت مسلمين على العموم باعتبارهما نقطة بداية للبحث الفلسفى إن لم يكونا مسلمين باعتبارهما نتيجة لذلك البحث .

وقد استهل « برجسون » مقاله هذا بقوله :

« إذا قارنا التعريفات المختلفة للميتافيزيقا بعضها ببعض والمفاهيم المختلفة للطلق بعضها ببعض أيضاً ، تبين أن الفلاسفة على الرغم

(٣٥) نفس المصدر ، الدرس الثامن والخمسون ؛ نفس المؤلف : « مقال عن

الروح الوضعية » فقرة ١٢ .

(٣٦) ليتريه : « تقديم تلميذ للطبعة الثانية من كتاب الدروس » .

من ظاهر اختلافهم متفقون على التفرقة بين طريقتين للمعرفة مختلفتين جداً : الأولى عبارة عن الاحاطة بالمطلوب ، والثاني عبارة عن النفاذ إلى صميمه . والأول يختلف باختلاف وجهات نظرنا ، وباختلاف ما نعبر به من الرموز ؛ والثاني لا يُدرك من أى وجهة ولا يعتمد على أى رمز . والمعرفة الأولى يقال عنها إنها تقف عند « النسبي » ، والثانية يقال عنها ، حيث تكون ممكنة ، إنها تصل إلى « المطلق » ، . . . . (٣٧) .

إذن فبرجسون يرى أن هنالك طريقتين مختلفتين لمعرفة شيء من الأشياء : الطريقة الأولى بالدوران حول ذلك الشيء ، والثانية بالدخول فيه وتقصص شخصيته ، إن صح هذا القول .

والطريقة الأولى هي الطريقة التي جرى عليها العلم . والثانية هي طريقة الميتافيزيقا . وكلتا الطريقتين عند برجسون سائغة مشروعة . والمعرفة التي يدنا العلم بها عن الأشياء تتوقف على وجهة النظر أو « الموقف » الذي يتخذه الإنسان ، وعلى الرموز التي يعبر بها : فهي معرفة « نسبية » ؛ وأما المعرفة الميتافيزيقية فتسعى إلى التخلص من كل رمز ومجاوزة كل وجهة نظر خاصة ، وتسعى إلى تخطي تصوراتنا نفسها للوصول بوجه ما إلى « المطلق » .

(٣٧) برجسون : « الفكر والمتحرك » ، باريس سنة ١٩٣٤ ص ٢٠١ .



والميتافيزيقا تريد أن تسلبنا ، من الداخل ، الحقيقة التي يقدم العلم إلينا من الخارج ، وجوهها المتجزئة المتفرقة . والفرق بين العلم والميتافيزيقا كالفرق بين حركة مقدره أو محسوبة ، وحركة قدمت ، والفرق بين سلسلة من الصور الفوتوغرافية لمدينة أو لشخص ما ، وبين معرفة تلك المدينة ومعرفة دخيلة ذلك الشخص .

ويضرب دبرجسون ، مثلاً شخصاً من أشخاص قصة تقص علي أخباره ونوادره : يستطيع القصصى أن يفيض في بيان صفات البطل ، وأن يجعله يتكلم ويعمل وفق هواه ؛ كل ذلك لا يعدل الشعور البسيط اللامتجزىء الذى يخالجنى حين أتقص الشخص نفسه لحظة واحدة : حينئذ تبدو لي الأفعال والأقوال والحركات وكأنها تنساب على سجيتها من نبع متدفق ، ولن تكون هذه أعراضاً تنضاف إلى الفكرة التي تكون عندي عن شخص القصة ، فتزيد تلك الفكرة دوماً ، دون أن تصل قط إلى إتمامها . بل إن شخص القصة يكون قد أعطى لي دفعة واحدة في اكتماله ، والاحداث الكثيرة التي تكشف عنه ، بدلا من أن تنضاف إلى الفكرة فتكسبها خصوبة ، تبدو لي بالعكس وكأنها انفصلت عنها دون أن تستنفد ماهيتها أو تسلبها تلك الخصوبة ، وكل ما يقص علي من شئون الشخص يعطيني وجهات

نظر عنه ؛ وجميع الصفات التي تصفه لي والتي لا تستطيع أن تجعلني أعرفه إلا بمقارنات وأشخاص وأشياء أعرفها من قبل — كلها علامات يعبر الإنسان بها عنه تعبيراً متفاوتاً في الرمز . فالرموز ووجاهات النظر تضعتني خارج الشخص ولا تعطيني عنه إلا ما هو مشترك بينه وبين أشخاص آخرين دون أن يختص به وحده . ولكن ما هو خاص به ، وما هو عبارة عن ماهيته ، لا يمكن أن يدرك من الخارج ، لأنه باطن بالتعريف ، ولا يمكن أن يعبر عنه برموز ، لأنه لا مشابهة بينه وبين شيء آخر . فالوصف والتاريخ والتحليل تتركني هنا في نطاق « النسبي » ، أما تقمص الشخص نفسه فهو الذي يعطيني « المطلق » ، (٣٨) .

فالعالم الوضعي عند برجسون وظيفته العادية أن يحلل : وإذن فعمله ينصب قبل كل شيء على الرموز ، ويقف عند الصور المنظورة ، فيوازن الصور بعضها ببعض ، ويرد المعقد منها إلى البسيط ، ويسير من الأجزاء إلى الكل ، ومن العناصر المتفرقة إلى الحقيقة الواحدة . أما الميتافيزيقا فتسمى بالعكس إلى النفاذ إلى ماهية الأشياء : فتبدأ من الكل ، ومن الحقيقة البسيطة المدركة بالحدس لا بالذهن ، كي تحيط بالعناصر المجردة التي توضح طبيعتها

ولكن لا تفسرها ، والتي تتلقى من حدس الكل معناها الصحيح ويقول برجسون : « لو كان هنالك وسيلة لامتلاك حقيقة ما بالاطلاق ، بدلا من معرفتها نسيياً ، وللحلول فيها بدلا من اتخاذ نواحي نظر متعددة عنها ، وأخيراً للاستيلاء عليها ، بمعزل عن كل تعبير أو ترجمة أو تمثيل رمزي ، لكانت الميتافيزيقا هي ذلك نفسه . فالميتافيزيقا إذن هي العلم الذي يريد أن يستغنى عن الرموز ، (٣٩) ذلك أنها تطلب المطلق والحقيقة في كمالها والشيء من الداخل ومن جهة ما هو فيه ذاتي جوهرى . ولا يستطيع بلوغ ذلك إلا بالحدس . وهو ذلك التعاطف الذى تنتقل به إلى داخل شيء لنلتقى بما هو فيه فريد ، ومن ثم مالا يستطيع التعبير عنه ، (٤٠) .

والميتافيزيقا ، إذا أريد لها أن تنزه عن شقشقة الألفاظ والآفكار ، لا مناص لها ، فى نظر برجسون ، من أن تسمو فوق التصورات لكي تصل إلى الحدس ، لترى الأشياء فى حركتها وتجدها وحياتها النابضة ، وترى الوجدان تقدماً مستمراً ، ولحناً متصلاً ، وتياراً لا ينقطع ، وتعاقباً ليس فيه تكرار وكل لحظة فيه فريدة . و« الحدس ، البرجسونى الذى يقتضى مراناً طويلاً ، يربط بين

(٣٩) برجسون : « الكز والمتحرك » ص ٢٠٦

(٤٠) المصدر السابق ، ص ٢٠٥

العقل والتجربة . فهو أولى أن يكون فوق العقل من أن يكون  
مناوئاً للعقل : إنه يعتمد دواماً على العلم ، وكل ما في الأمر أنه  
يحاول ، مع استعمال نفس الأدلة التجريبية ، أن يمضي في الطريق  
فيا وراء المواضع التي يقف العلم عندها (٤١)

أراد «برجسون» بالحدس الفلسفي ، أي بذلك المجهود الروحي  
الذي يبذله الفيلسوف للتعاطف مع الأشخاص والأشياء ، أن  
يصل إلى الحقائق العميقة للوجود ، وإلى المطامح التلقائية للفرد ،  
وإلى ما سماه «وليم جيمس» سر الحياة . وهذا التعاطف ضروري  
لبلوغ الحقيقة : أليس السبيل الوحيد إلى فهم الأشخاص وتصويرهم  
هو أن نعطيهم شيئاً من أنفسنا : أي أن نحبههم ؟

\*\*\*

أن أكبر فضل لبرجسون على الفلسفة هو أنه استطاع في  
عصر العلم الوضعي و«المنطق الوضعي» أن يعيد إلى الميتافيزيقا  
منزاتها ، وأن يرد إليها اعتبارها . وبهذا استطاع أن يعيد إلى  
عصره ما كان ينقصه : الروح والحب .

(٤١) انظر : «الدراسات البرجسونية» م ١ سنة ١٩٤٨ ص ١٧٨

## أقسام الميتافيزيقا :

تقسم الميتافيزيقا عادة إلى قسمين : الأول « الأنطولوجيا » ،  
وهي النظر في الوجود بما هو موجود . وتتفرع « الأنطولوجيا » ،  
بدورها فرعا ثلاثة : « الكسمولوجيا العقلية » ، وهي النظر في العالم  
الخارجي ، و « البسيكولوجيا العقلية » ، وهي النظر في النفس ،  
و « التيولوجيا العقلية » ، وهي النظر في الله (٤٢) . والقسم الثاني هو  
« الإبستمولوجيا » وهو النظر في المعرفة البشرية وفي قيمتها  
وحدودها ؛ والابستمولوجيا أو نظرية المعرفة تشمل النقد .

ولم يزعم الميتافيزيقيون أن في الإمكان حل المشكلة  
الميتافيزيقية العامة جملة ، وإنما جروا على مقتضى القاعدة الديكارتية  
في تقسيم المشكلات ، ورأوا أن الميتافيزيقا تشتمل بالضرورة على  
عدة مسائل قد تميز بعضها عن بعض ؛ أما وحدة المذهب فباقية ،  
على الرغم من تعددها ، وذلك بشرط أن يتولى النظر في المسائل  
المنوعة فكر واحد ، وأن تصطنع في الحلول المختلفة  
مبادئ واحدة .

(٤٢) يطلق وصف « العقلية » على الكسمولوجيا والبسيكولوجيا للفرقة  
بينها وبين الكسمولوجيا والبسيكولوجيا التجريبيين ، ويطلق على التيولوجيا للفرقة  
بينها وبين الوحي السماوي .

وإذا صح هذا ، فهناك تقسيم تفرضه طبيعة الأشياء نفسها ، وعلى ذلك اشتملت الميتافيزيقا على ثلاث مشكلات كبرى : مشكلة النفس ، ومشكلة الطبيعة ومشكلة الله ؛ وهذه المشكلات تشمل مجموع ما يمكن أن يكون موضوعاً للمعرفة البشرية خارج العلم ؛ ولكن خارج هذه المشكلات الثلاث مشكلة رابعة تدخل دراستها أيضاً في مجال الميتافيزيقا ، وتلك هي مشكلة المعرفة البشرية نفسها .

الرد على الوضعيين :

إن رأى الوضعيين في الميتافيزيقا رأى لا يمكن أن يقبل فضلاً عن أنه لا يثبت على النقد والتجسس :

لا نريد أن نتكلم هنا عن الاعتراضات الكثيرة التفصيلية التي وجهت إلى « قانون الأطوار الثلاثة » ، على نحو ما بسطه رئيس المدرسة الوضعية « أوجست كونت » . ولعل أهم من هذا أن ننبه إلى أن « أوجست كونت » ، قد نظر إلى الميتافيزيقا نظرة ضيقة أشد الضيق ، فكان مثال الفكر الميتافيزيقي عنده هو الطلاسم المدرسية والمجردات المشخصة والتفسيرات اللفظية ، على نحو ما نجد عند أطباء « مولير » ، في حين أن الأكثرين من كبار الميتافيزيقيين أنفسهم قد جعلوا من مهمة الميتافيزيقا مكافحة هذا النوع من النظر :

فميتافيزيقا «ديكارت»، مثلاً، فيها رد على تعاليم «المدرسين»، وقد أنكر الفيلسوف جميع «صورهم الجوهرية وصفاتهم الخفية»، كما أنكر بوجه عام «الكليات المدرسية»، و«فرق بكل عناية بين «الماهيات»، و«الطبائع الصحيحة الثابتة»، التي ندركها مباشرة بالحدس (٤٣).

أما «مالبرانش»، فقد نقد «الألفاظ العامة المنطقية التي يتيسر بها تفسير جميع الأشياء دون أن يكون للإنسان أى علم بها» (٤٤).  
وأما «اسبينوزا»، فقد رفض ما يسمى الألفاظ «العالية»، كالوجود والشيء، كما رفض «الكليات»، كالإنسان والحصان، ووصفها بأنها «معانٍ غامضة إلى أقصى درجة» (٤٥).  
و«بركلى»، هو أيضاً قد رأى أن المجردات هي أصل البلاء «وهذه الأفكار المجردة ليست إلا أوهاما وقر في عقول الفلاسفة أنها حقائق مع أنها مصدر الظلام الذي يحيط بالمعرفة، ومن

(٤٣) ديكارت: «الردود على الاعتراضات الخامسة»، طبعة أدام وتانرى م ٧

ص ٣٨٠،

(٤٤) مالبرانش: «طلب الحقيقة»، القسم الثانى، الكتاب الثالث،

الفصل الثانى.

(٤٥) اسبينوزا: «الأخلاق»، الكتاب الثانى، القضية ٤٠ نتيجة ١

الواجب أن نبعدها عن طريقنا لنرى نور الحقيقة ، (٤٦) .  
 والميتافيزيقا المعصرية تذهب يقينا مذهبا مخالفا للتصورات  
 والمجردات : فهذا « دونان » يرى أن مقصد الميتافيزيقا هو « أن  
 تفهم حقائق الأشياء وما فيها من ثبوت ، (٤٧) بخلاف  
 العلم الذي تحتم عليه أن يكون مجرداً ، إذ أنه هو معرفة القوانين  
 والعلاقات بين الوقائع . وهذا « برجسون » يصرح كما رأينا أن  
 الميتافيزيقا يجب أن تسمو فوق التصورات لكي تبلغ الحدس ،  
 وإلا أضحت ضرباً من لهو الأفكار .

\*\*\*

على أن المذهب الوضعي أراد أن يتفادى مشكلة كبرى :  
 فحكمه على الميتافيزيقا قائم على دليل من أدلة الواقع فيما يزعمون ،  
 وهو قانون الأطوار الثلاثة ؛ مع أن هذا الدليل ينقضه الواقع  
 نفسه : لأن البحث الميتافيزيقي أبعد ما يكون عن الزوال أو الفتور  
 في عصرنا الحاضر ، ومن التعسف أن نرى فيه كما رأى « أوجست  
 كونت » بقية من بقايا العهد الغابر .

ومن جهة أخرى نلاحظ أن رئيس المدرسة الوضعية يستعمل  
 لفظ « الوضعي » في معنى ضيق ولا يخلو من التباس : إذ هو يرى

(٤٦) بركلي : « رسالة في مبادئ المعرفة البشرية » المقدمة .

(٤٧) دونان : « مبحث في الفلسفة العامة » الطبعة الخامسة ، ص ٤٣٥ .



أن الشيء الوضعي هو الشيء « المؤكد » الذي يمكن أن يقاس ،  
 وأنه هو الشيء « النسبي » ، وأخيراً هو الشيء « النافع » . ولكننا  
 نرى أن مفهوم الوضعي ليس كذلك ، فالوضعي هو الحقيقي  
 مأخوذاً بكل ماله من مفهوم وما صدق .

والخلاصة أن الوضعيين قد خلطوا بين الميتافيزيقا وبين صورة  
 من الصور « القطعية » (الديجايطيقية) التي ظهرت عاينها الميتافيزيقا في  
 عصورها المتأخرة ، تلك الميتافيزيقا التي تطاولت إلى مجال العلم ، دون  
 أن تملك عدته ، وهاجمته في عقر داره . فحكم أوجست كونت لايس  
 إلا تلك الصورة من صور الميتافيزيقا التي هاجمها من قبله « كانت » ،  
 ولا ينال مجال من الأحوال الميتافيزيقا الحقة ، الميتافيزيقا النقدية  
 ولا ميتافيزيقا الأخلاق . وإذا كان من الظلم أن نحكم على العلم  
 حكماً قاسياً من أجل إسراف بعض العلماء الذين يصح لو مهم  
 لتطاولهم على مجال الميتافيزيقا ، فمن الظلم أيضاً اتهام الميتافيزيقا  
 الصحيحة بما هي منه براء .

على أننا نستطيع أن نتصور الميتافيزيقا والعلم متحابين متآلفين  
 دون أن يكون بينهما تناف أو عدا ، على شرط أن نرسم لكل  
 منهما حدوده ومجاله ومداه ، وأن نعرف كيف « نعطي لقيصر  
 ما لقيصر وما لله لله » .

خاتمة:

العلوم كلها لا تسلبنا إلا أشياء نسبية . ومع ذلك ففي أعماق نفوسنا فكرة أو مطلب قاهر يريد نظاماً معقولاً حقيقياً مطلقاً . فالرياضي يفترض مبدئاً مسلماً به هو الاًمتناهي ، والعالم الفيزيقي يفترض النظام ، والعالم البيولوجي يفترض الغائية ، وعالم النفس يفترض الحرية ؛ كلهم يفترضون تلك المبادئ حقائق موجودة باقية . فما قيمة تلك المطالب وتلك الأفكار؟ أهي حاصلة قائمة في الواقع؟ أفلا نستطيع أن نتصور وأن نحقق تجربة إن لم تكن هي تجربة المطلق ، فهي على الأقل تجربة آثاره؟ إن على الميتافيزيقا أن تجيب عن هذه الأسئلة ، إذا أرادت أن تضطلع بالمهمة التي ناطها بها أرسطو حين عرف الفلسفة الأولى بأنها دراسة الطبيعة ، ودراسة أصل الأشياء وغايتها ، ودراسة الحقائق الأولى والمبادئ الأولى . وبالأجمال العلم بالموجود بما هو موجود ، وعلى وجه أدق العلم بالموجود الذي هو بذاته ولذاته : النفس .

وبهذا تجيء الميتافيزيقا مكملة للعالم : إنها لا تسيطر عليه ولا تتحكم فيه ، لأنه في مستوى غير مستواها ، ولكنها تستعمله وتمد رحابه ، إذ تلبي النداء الذي يأتيها من العلوم نفسها . ولقد رأينا العلم ، في النزاع الدائم بين ما هو معروف لنا وما يجب علينا أن

نعرفه ، حريصا على الامتناع عن كل مغامرة ، بل عن كل نظرة فيما وراء ما يمكن أن يُعرف . مع أن هذا «ألماء وراء» ليس قارة ستكشف ، وليس كمية ستنفد ، إنما هو «لامتناه» حاضر في كل خطواته . وإذن فالعلم نفسه ، بمهمة الاكتشاف الذي لا يتم أبداً ، يمد للحدس الميتافيزيقي ويستدعيه إلى روح «الإنسان» القائم دوماً في ذهن «العالم» : والواقع أن العلماء المبدعين كانوا جميعاً ميتافيزيقيين . ولقد صدق كورتو : «حُكَّ جلد العالم تظهر حساسية الفيلسوف» (٤٨)

وإذا فهم الأمر على هذا النحو كانت الميتافيزيقا سائغة مشروعة لمنهجها ولموضوعها . وطبيعي أن يكون المنهج هنا هو المنهج الفلسفي المؤلف ، منهج البحث عن المعقولة ، والإيغال في الحياة الداخلية ، والانتهاال من منابع الروحانية .

ومنهج الميتافيزيقا يعرف بموضوعها : فإن العلاقات ، التي هي موضوع العلم ، يُتوصل إليها بطريق النظر وبالتحليل والتأليف . أما مبادئ الأشياء ، أو ما وراء الفكر الرمزي ، أعني ما هو بسيط ومطلق ، وهو موضوع الميتافيزيقا ، فلا يستطيع الوصول إليه إلا في حدس من حدوس النفس ، أي بنحو من أنحاء المعرفة

(٤٨) كورتو : « المذاهب المادية والحيوية والعقلية » ص ٢٦٦

المباشرة البسيطة . ولما كان التحليل الذي يصطنعه العلم بجري على المعطيات المشتركة للمشاهدة الحسية ، فهو يحلل الأشياء إلى عناصر معروفة ، مجردة ، عامة ، تعرض من الأشياء ماديتها ومظهرها المكاني . أما الحدس الذي هو منهج الميتافيزيقا ، فهو بجهود لمعرفة الشيء نفسه من الداخل ، بنوع من التعاطف العقلي ، كما يقول برجسون ، ذلك التعاطف الذي وظيفته الأولى « رؤية الروح بالروح » ، ومجازة نسبية المعرفة النظرية للوصول إلى المطلق ، والنفاذ فيما وراء الآلية الظاهرة التي يرينا العلم إياها ، لكي نصيب ، في آن واحد ، الدفعة الأولى التي تنبثق منها بلا انقطاع كل حقيقة ، والتدفق الخالق المبدع الكامن في الوجود .

• • •

تلك هي الميتافيزيقا وذلك وجه الحاجة إليها ؛ ففي كل تجربة فعلية ميتافيزيقا وإن تكن غير واعية ، وأحرى بنا إذا جحدنا الجاحدون أن نذكر كلمة المعلم الأول : « إذا لزم التفلسف فلتتفلسف ؛ وإذا لم يلزم التفلسف فلتتفلسف أيضاً كي تثبت عدم لزوم التفلسف » . إن إنكار الميتافيزيقا نوع من الاشتغال بها ؛ وإذن فلا استغناء عنها ، فالإنسان كما قيل « حيوان ميتافيزيقي » ، إنه كما يقول ميرسون : « يمارس الميتافيزيقا كما يمارس التنفس » .

## الشك الميتافيزيقي

مقدمة - أنواع الشك - الثقة بالحواس -  
العالم الخارجي - إشكالات - الشك المشروع

يعلم الناس أن أحرار الفكر وأهل الإلحاد المنكرين لوجود الله كانوا دائماً موضع سخط اللاهوتيين ورجال الدين . وهذا أمر طبيعي ، ولكن قد لا يخلو من العجب أن المتبع لتاريخ الفكر الإنساني ولتاريخ الفلسفة على الخصوص ، يلاحظ أن الشكك والأدريين ، سواء منهم من يرتابون في إمكان الوصول إلى الحقيقة ويشكون في قدرة الإنسان على المعرفة ، أو من لا يجزمون في أقاويلهم ويتوقفون في الحكم على الأشياء ويثرون أن يجيبوا السائلين بقولهم : لاندري - أولئك وهؤلاء كانوا غالباً موضع نقد الفلاسفة والميتافيزيقيين . فلم كان هذا ؟ .

لسبب بسيط جداً فيما نرى ، وهو أن المتشككين والأدريين هم في نظر الفلاسفة شبيهون بالكفرة الملحدون في نظر رجال الدين : لأنهم حين ينكرون ملكات النفس ، ويحددون قدرة الحواس ، ولا يعترفون بحقيقة العقل ، إنما ينكرون وجود الإنسان في أخص ما يميزه وهو النفس الناطقة أي المفكرة .

وإذن فما الشك ؟ وما أنواعه ؟

هنالك نوع من الشك هو من لواحق التأمل والنظر ، يعرفه الباحثون حين يتبينون أن ملكاتهم العقلية خداعة لا يحسن الاطمئنان إليها أو أنهم عاجزون عن الوصول إلى حل شاف مقنع في جميع تلك الموضوعات الغريبة التي يستعملون فيها تلك الملكات : فمن الفلاسفة من وضع حواسنا موضع الشك ، ومنهم من ارتأب في العقل نفسه ، بل منهم من ذهب إلى الشك في أصول الدين ، وفي المبادئ والقواعد التي نسير عليها في الحياة اليومية .

ولا حاجة بنا إلى الخوض في الاستدلالات المشهورة التي عمد إليها الشكاك منذ زمان طويل لهدموا شهادة الحواس . وحسبنا أن يشير إلى النتائج التي استخلصوها من خداع حواسنا في مواطن كثيرة : كالعصا التي تبدو في الماء وكأنها مكسورة ، وكالمظاهر المختلفة التي تبدو الأشياء عليها تبعاً لاختلاف أبعادها عنا ، وكالصورتين اللتين نراهما لشيء واحد عند الضغط على إحدى العينين ، ومظاهر أخرى كثيرة من هذا القبيل .

وهذه الاستدلالات الارتيازية تبين في الحقيقة أنه لا ينبغي لنا أن نثق بالحواس وحدها ثقة عمياء ، بل ينبغي تصحيح شهادتها بالعقل ، وبما نعرف من طبيعة المكان وبُعد الشيء المنظور وحال عضو الحس ، لكي نجعل منها في حدود مجالها معايير للخطأ والصواب .

إن الناس يميلون بالفطرة إلى الثقة بحواسهم . وبديهي أننا نفترض وجود العالم الخارجي بدون أى استدلال عقلي ، بل قبل استعمال العقل : ومعنى هذا أننا جميعا نفترض أن هذا العالم موجود ، وأنه لا يعتمد على إدراكنا الحسى ، بل يكون موجوداً حتى لو انقرضنا وانقرض كل مخلوق يحس . ويبدو أن المخلوقات الحيوانية هي أيضاً تعيش على تسليم كهذا بالغريزة ، فتسليمها بوجود الأشياء الخارجية ملازم لها في هواجسها وغاياتها وأفعالها .

وبديهي أيضاً أن الناس حين يتبعون تلك الفطرة الطبيعية والغريزة القوية إنما يفترضون أن الصور التي تقدمها الحواس لأذهاننا هي الأشياء الخارجية نفسها ، ولا يدور بخلدنا أبداً أن تلك الصور ليست إلا تمثيلات ذهنية : هذه المائدة التي نرى لونها ونحس صلابتها يظن الناس أنها موجودة بصرف النظر عن إدراكنا إياها ، ويظنون أنها شيء خارج عن أذهاننا التي تدركها ، وأن حضورنا لا يعطيها الوجود ، كما أن غيابنا لا يورثها الفناء : لأن وجودها مستقل وبمعزل عن الموجودات المتعلقة التي تدركها أو تتأملها .

\*\*\*

ولكن هذا الاعتقاد الشائع المركوز في طبيعتنا سرعان ما نقوضه الفلسفة : فهي تعلمنا أن المائل أمام الأذهان لا يمكن أن يكون شيئاً

آخر غير صورة ذهنية أو إدراك عقلي ، وأن الحواس إنما هي وسائط أو وسائل لنقل تلك الصور ، ولا قدرة لها على إحداث أى اتصال مباشر بين الذهن والأشياء . ألسنا نرى الشجرة تتصغر وتتضائل كلما ابتعدنا عنها ؟ ولكن الشجرة الحقيقية الموجودة بمنزل عن رؤيتنا لا يعترها أى تغيير ؛ وإذن فلم يكن لدينا من الشجرة سوى صورتها أمام أذهاننا : تلك مطالب العقل الواضحة . وليس من يفكر إلا ويتبين أن الوجود الذى نخطره بأذهاننا حين نقول : « هذا البيت » و « هذه الشجرة » إنما هو « تمثلات » وإدراكات ذهنية أو صور شاردة لوجودات أخرى تبقى مستقلة عنها بأعيانها .

وإذن فنحن مضطرون ، حين نحتكم إلى العقل ، أن نخالف فطرتنا وغريزتنا الأصلية ، أو أن نبتعد عنها ، ونأخذ بمذهب جديد عن شهادة الحواس . ولكن الفلسفة تجد نفسها هنا فى حيرة شديدة إذا أرادت أن تبرر هذا المذهب الجديد ، وأن تتفادى اعتراضات الشكك : فهى لا تستطيع منذ الآن أن تحتج بعصمة الفطرة الإنسانية ، لأن هذه الفطرة قد ساقتنا إلى مذهب مخالف معترف بأنه غير معصوم بل مخطئ مغاوط .

فالإشكال قائم ، وخلاصته أن من العسير أن تثبت أن



الإدراكات الذهنية أو الوجود الذهني ناشيء بالضرورة من الأشياء الخارجية أو وجود عيني يخالفه كل المخالفة ، ولكنه يشبهه في الوقت نفسه بقدر الإمكان ، وأن ذلك الوجود الذهني لم ينجى من قوة الذهن نفسه ، ولا من وحى ذهن آخر خفي مجهول ، ولا من علة أخرى غير معروفة لنا . إن من المسلم به بل من المشاهد أن كثيراً من هذه الإدراكات الذهنية لا تأتي من شيء خارجي ، كما يحدث في الأحلام ، وفي الجنون وفي أمراض أخرى . ولا شيء هو أصعب من تفسير تأثير الجسم على الذهن تفسيراً يبين كيف تنتقل صورة من الجسم إلى جوهر مفروض فيه أنه من طبيعة أخرى تخالفه بل تضاده كل التضاد .

فهل نستطيع حلّ هذا الإشكال بالرجوع إلى التجربة ؟ الواقع أن التجربة هنا صامتة لا تبين . وليس أمام الذهن شيء غير الإدراكات العقلية ، ولا سبيل له إلى الحصول على تجربة أيّاً كانت عن ارتباط تلك الإدراكات بالأشياء الخارجية . فهل نلجأ إلى صدق الوجود الأعلى ، أو الله ، لضمان صدق حواسنا ؟ ذلك أشبه بدور لم يكن في الحسبان : فلو كان لصدق الله دخل في هذا الأمر لكانت حواسنا معصومة كل العصمة ، مادام يستحيل على الله أن يخدعنا أبداً . يضاف إلى هذا أننا ما دمنا قد شككنا في العالم الخارجي ، فمن العسير أن نجد

الدليل على وجود ذلك الموجود الأعلى ، ومن العسير إثبات  
أى صفة من صفاته .

وإذن فهذا أمر يتجلى فيه دائماً انتصار الشكك من الطراز  
الفلسفى العميق ، ويسهل عليهم بصدده أن يتشككوا فى جميع  
موضوعات النظر الإنسانى والمعرفة الإنسانية . يستطيعون أن  
يقولوا لنا : إن كنتم تتبعون فطرة الطبيعة الإنسانية فى تصديقكم  
للحواس ، فهذه الفطرة تؤدى بكم إلى الاعتقاد بأن الإدراك هو  
الشيء الخارجى نفسه وأن ما بالأذهان هو ما بالأعيان .

وإن كنتم لا تتبعونها وتقولون بأن الإدراكات إنما هى صور  
لأشياء خارجية ، فأنتم تبتعدن عن فطراتكم ومشاعركم الظاهرة ،  
ومع ذلك لا تستطيعون أن ترضوا عقلكم الذى لا يجد حجة  
مقنعة مستخلصة من التجربة لإثبات أن الإدراكات الذهنية  
متصلة بالأشياء الخارجية .

• • •

وهناك موضوع آخر للشك الميتافيزيقى : من المسلم به لدى  
الفلاسفة المحدثين أن جميع الصفات والكيفيات الحسية للأشياء  
مثل اليبوسة والمرونة والسخونة والبرودة واليباض والسواد وما  
إليها ، إنما هى صفات ثانية ، بمعنى أنها ليست موجودة فى الأشياء  
ذاتها ، بل هى مدركات ذهنية وليس لها نموذج أو مثال خارجى ؛

فإذا كان الفلاسفة يقبلون ذلك بالقياس إلى «الصفات الثانية» ، فيجب قبوله أيضا بالقياس إلى «الصفات الأولى» ، كالامتداد والصلابة؛ وإذا كانت جميع الصفات المدركة بالحواس في الذهن لا في الأشياء ، فإن هذا القول يصدق أيضا على فكرة الامتداد التي تعتمد كل الاعتماد على الأفكار الحسية أو الصفات الثانية . ولا مفر لنا من هذه النتيجة . ولا عبرة بالقول بأن تمثلات الصفات الأولى مستفادة بالتجريد — وهو عبارة عن انتزاع الشخصيات الحسية — فإن هذا القول لا معنى له في نظر الكثيرين : إذ أن الامتداد إذا لم يكن ملموساً ولا مبصراً لم يكن إدراكه كما قال «بركلي» .

وإذن فالاعتراض الأول على شهادة الحواس ، أو على الاعتقاد بوجود العالم الخارجي هو عبارة عن أن ذلك الاعتقاد إذا أقنناه على الفطرة خالف العقل ، وإذا أرجعناه إلى العقل خالف الفطرة ، دون أن يُفضى إلى ضمان عقلي يقنع الباحث المنصف . والاعتراض الثاني يذهب إلى أبعد من ذلك ، ويمثل ذلك الرأي مخالفا لما يقضى به العقل ، متى اعتبرنا من مبادئ العقل أن جميع الصفات الحسية في الذهن لا في الأشياء . إننا إذا جردنا المادة من جميع صفاتها المدركة بالعقل — إذا جردناها من الصفات الأولى والثانية — فكأننا أفنيناها

لم نترك من علة لمدر كاتنا إلا شيئاً مجهولاً لا سبيل إلى تفسيره .

\*\*\*

قد يبدو إسرافاً من الشكك أن يحاولوا هدم العقل بالدليل العقلي . ومع هذا فيمكن أن يقال إن غاية قصدهم في بحوثهم ومناقشاتهم أن يوردوا الاعتراضات على استدالاتنا العقلية وأحكامنا الأخلاقية وتجاربنا الواقعية .

والاعتراض الأكبر على جميع الاستدلالات العقلية المجردة مستخلص من فكرة المكان والزمان : فقد قال أصحاب الهندسة وأصحاب الميتافيزيقا بنظرية في انقسام الامتداد انقساماً لامتناهياً ، فذهبوا إلى وجود كمٍّ حقيقي هو أصغر صغراً لامتناهياً من أى كم متناهٍ وحاوٍ لكميات أصغر منه صغراً لامتناهياً ، وهكذا إلى غير نهاية . وعلى الرغم من أن هذه النظرية تصدم بغرابتها أوضح مبادئ العقل البشرى ، فقد توصلوا إليها بسلسلة من الاستدلالات الواضحة ، بحيث يستحيل التسليم بمقدماتها دون التسليم بنتائجها .

ولعل أشد ما تبدو غرابة هذه النظريات في مسألة الزمان : فقد قالوا إن هناك عدداً لامتناهياً من أجزاء الزمان الحقيقية تنقضى بالتتابع ويفنى بعضها في أثر بعضها الآخر . وفي هذا تناقض

جلى صارخ ، يحير العقل ، ويحمله على قلة الثقة بنفسه وعلى الحذر من كل تقرير واستدلال .

أما اعتراضات الشكك على شهادة الأخلاق وعلى الاستدلالات المتعلقة بالتجربة ، فبعضها عامي ، وبعضها فلسفي : فالاعتراضات العامة مستخلصة من ضعف الذهن الإنساني بفطرته ، ومن تناقض الآراء في العصور المختلفة وعند الأمم المختلفة ، ومن تباين أحكامنا في أحوال المرض والصحة ، والشباب والشيخوخة ، والسراء والضراء ، ومن اختلاف الآراء والعواطف والأهواء باختلاف الأشخاص والثقافات .

وظاهر أن هذه الاعتراضات ضعيفة متهافتة : فإن أكبر ما يقوِّض مذهب الشكك هو العمل ومشاغل الحياة الجارية . وقد تزدهر مبادئ الشكك في الكتب وتذيع في الجامعات ، ولكنها ما تكاد تخرج من الظل ، وتواجه الوقائع التي تهز أهواءنا وعواطفنا ، وتصدم المبادئ المركوزة في غرائزنا وفطراتنا ، حتى تتضاءل وتتهافت كما يتهافت الفراش على النار ، وتترك أشد المتشككين عناداً وقد أمسى كغيره من عباد الله المصدقين .

غير للمتشككين أن لا يغادروا ديارهم الخاصة وأن لا يخرجوا من مجاهم الفلسفي ، فهم خليقون حينئذ أن ينتصروا على خصومهم : فلو أنهم صرحوا مثلاً بأن ما يدعوننا إلى الاعتقاد

بواقعة من الوقائع تتجاوز شهادة الحواس وشهادة الذاكرة مستفاد من علاقة العلة بالمعلول ، وأنه ليس لدينا فكرة أخرى عن هذه العلاقة غير علاقة شيتين ارتبط أحدهما بالآخر مرات كثيرة ، وأنه ليس لدينا دليل مقنع على أن الأشياء التي وجدناها بالتجربة مرتبطة مرات كثيرة ستكون مرتبطة أيضاً على ذلك النحو في حالات أخرى ، وأن ما يحملنا على ذلك الاستنتاج ليس شيئاً آخر غير «العادة» أو غريزة ما في طبيعتنا ، قد تكون كغيرها من الغرائز خداعة - لو أن المتشككين صرحوا بأمثال هذه الأقوال ، كما فعل الفيلسوف «هيوم» ، لاستطاعوا أن يشيروا إلى موضع الضعف الإنساني ، وأن يقوضوا كل قول قاطع وكل يقين مطمئن .

\*\*\*

ولكن ماذا يعود على المجتمع من أمثال هذه الشكوك إن المتشكك لا يستطيع أن يطمح في أن يكون لفلسفته أثر دائم في النفوس . وإذا كان لمذهب الشك أثر ما ، فلن يكون أثراً نافعاً للمجتمع . والواقع أن المتشكك مضطر إلى أن يعترف - لو أمكن أنه يعترف بشيء - أن كل حياة إنسانية تنقرض بالضرورة إذا سادت مبادئه الشكية واعتنقها الناس جميعاً ، وأن كل استدلال وكل عمل يقف توأماً ، ويصير الناس إلى ما يشبه النوم الشامل ، ويلبثون على تلك الحال إلى أن تضطرهم ضرورات

الحياة إلى الحركة والعمل ، ولا جرم أن الحياة أقوى من المبادئ : فهما يحاول المنشكك ، باستدلالاته العميقة ، أن يُلقى في روع الناس قدراً من الحيرة والبلبلة والاضطراب ، فإن أتفه حوادث الحياة تقضى على هواجسه وشكوكه ، وتتركه شبيهاً بغيره ممن لم يشتغلوا يبحث فلسفي قط . فما أعجب حال الإنسان ، يُضطر إلى العمل والتفكير والاعتقاد ، دون أن يكون لديه يقين يدفع به كل اعتراض !

\*\*\*

على أن هنالك نوعاً من الشك المشروع ، هو سابق على كل بحث وكل فلسفة ، وهو قريب من الشك الذي دعا إليه إمام الفلسفة الحديثة ، ليكون درعاً يحمينا من الوقوع في الزلل ، ويصون أحكامنا من التعجل والنهور . لقد نصحننا ديكارت بأن نمارس شكاً شاملاً ، لا يقتصر على آرائنا ومبادئنا العتيقة بل يجاوزها إلى ملكاتنا البشرية جميعاً ، بمعنى أننا ينبغي أن نشك في حواسنا وعقولنا حتى نستوثق منها ونصل إلى يقين عن صحتها . وقد تم ديكارت ذلك اليقين بسلسلة من الاستدلالات مستخلصة من مبدأ أول لا يمكن أن يكون مغالطاً ولا خداعاً .

وقد اعترض على الشك الديكارتى بأمرين ، أنه لا يوجد مبدأ أول بهذه الصفة يملك امتيازاً على جميع المبادئ الواضحة

المتميزة . ثم إنه لو وجد ذلك المبدأ لما استطعنا أن نتقدم بعده خطوة واحدة، ما لم نستعمل تلك الملكات البشرية نفسها، مع أن المفروض أننا نشك فيها . وإذن فشك ديكارت ، لو كان بالإمكان أن يمارسه إنسان ، خليق أن يصبح شكاً عضالاً يستعصى على الشفاء ، ويعجز أى استدلال عن أن يخرجنا منه إلى يقين .

ولكن يلزمنا أن نعترف مع ذلك بأن مثل هذا الشك ، حين يصطنعه الباحث بقصد واعتدال ، يمكن أن يفهم على معنى سائغ معقول ، ويكون حينئذ أشبه بتمهيد ضرورى لدراسة الفلسفة . يكفل لأحكامنا قدراً من النزاهة والإنصاف والخلو من المحاباة : ويُبْعِد نفوسنا عن نزوات الأهواء ووثبات الأغراض ، ويبقى أذهاننا من عثرات الأحكام التى نطلقها على الأشياء قبل معرفتها والتثبت منها ، متأثرين غالباً بما ألفناه من عادات وأوضاع . فنصائح ديكارت هنا هى المنهج الأمثل الذى نستعين به على الوصول إلى الحقيقة ، أو إلى اليقين المطلوب فيما نبتغى من مقاصد . وقد يلخص منهج ديكارت فى كلمات وجيزة بسيطة . ولكن ما أخصبها وأحفلها معنى لو عمل بها كما ينبغى ! إنها إذن تنقلب ثورة فكرية هادئة جارفة معا ؛ لنبدأ منذ الآن بأن لا نسلّم بأن شيئاً حق ما لم يتبين لنا بداهة أنه حق : ولنسرد سير الواثق المتمهل المتأنى ؛ ولنراجع بين الحين والحين



في حذر وعناية ما أتهينا إليه من نتائج. وقد يكون الطريقُ طويلاً  
والسيرُ وئيداً ، ولكنه يفضي بنا إلى تقدّم مأمون .  
إن الشطر الأكبر من أفراد الانسانية ميّال في آرائه إلى القطع  
والبتّ : إنه لا يرى الأمور إلا من جانب واحد ، وليس  
لديه ما يدعوه إلى مخالفة ما يرى ؛ وما دام التردد يحير عقله ،  
ويُقلق راحته ويُقبض مضجعه ، ويعوقه عن العمل ، فهو إذن  
قليل الصبر عديم الأناة ، يندفع حيث يميل به هواه ، ولا يعرف  
التسامح مع مخالفه . ولكن هذا الإنسان المتمسك بآرائه المتشبث  
بقرارانه ، إذا تبين الآفات العجيبة التي تنتاب الذهن الإنساني حتى  
في أكمل حالاته ، ومهما يبلغ منه الحذر والحيلة في تصميماته ، -  
ألهم قلبه شعور الرحمة والتحفظ والتواضع : تخفف من غلوائه ،  
واعتداده بنفسه ، وزرايته على خصومه . وإذا وُجد من العلماء من  
يميل بطبعه إلى الصلف والعناد والتحقير ، فإن تفهات من هذا  
التشكك المعتدل تنفعه : تعينه على كسر شرته ، وتلطيف سره .  
وكبح جماحه ، وإرشاده إلى أن القليل مما امتاز به على أقرانه ليس  
شيئاً مذكوراً بجانب الحيرة والخلل الملازمين للطبيعة الإنسانية .  
فإنالك إذن مرتبة من مراتب الشك يعقبها التواضع والشفقة  
والحيلة ، وهي مرتبة لا ينزل عنها ذو الفكر المستقيم في جميع  
أنحاء النظر والتصميم .

## نظرة في المشكلات الفلسفية الكبرى

العقل - مبدأ الكمال - الخير - القدر والغاية  
العائية والآلية - الحرية والحثية .

---

تمتاز الفلسفة اليونانية ، فيما بذلته من جهود قيمة لفهم العالم ، بأنها جعلت الأشياء كلها مستندة إلى مبدأ المطلق ، مبدأ الكمال أو الانسجام ، الذي يجعل للكون معنى ، ويدبّر جميع الأشياء ، ويوجهها نحو غاية .

\*\*\*

وأول ما تظهر هذه الفكرة في الفلسفة الأولى ، فلسفة الطبيعيين . نعم إن الفلاسفة السابقين على سقراط كانوا معنيين قبل كل شيء بمعرفة المادة التي هي أصل الأشياء جميعاً . ولكنهم مع ذلك لم يغفلوا عن إدراك المهمة الخطيرة التي يؤديها العقل في الكون : فهذا « هرقليطس » حين قال بأن النار جوهر كل شيء إنما تصورهما في الوقت نفسه عقلاً إلهياً يكفل للعالم المقياس والتوسط والميزان ؛ وإذا كان قد صح عند هذا الفيلسوف أن الأشياء تحملها ضرورة مستمرة وأنها تسير دون اختيار ، فإن الضرورة نفسها خاضعة عنده لقاعدة من قواعد الانسجام ؛ وإن شئنا أن نرجع إلى ما قبل « هرقليطس » وجدنا أن « فيثاغورس » قد قال بأن الكون كله خاضع لقانون هو قانون العدد ؛ ثم

جاء « أنكساغوراس » فقال كلمته المشهورة : « الأشياء كلها قد رتبها العقل » .

\*\*\*

على أننا نعلم مبلغ الأثر الذي تركته هذه الكلمات الأخيرة في نفس « سقراط » . دأب « سقراط » في شبابه على البحث عن العلل الأولى ؛ ولم تعجبه نظريات الطبيعيين الذين كانوا يميلون إلى تفسير الكون بالعناصر المادية ؛ فلما سمع أن العلة الصحيحة للأشياء هي العقل أحس أنه وجد ضالته ، واغتبط وتحمس لهذا القول ؛ وخلص منه إلى أن العقل قد دبّر الأشياء على أحسن ما يمكن أن يكون . ومن المحقق أن الفكرة الكبرى في فلسفة « سقراط » هي فكرة العقل الإلهي ، لا من حيث أنه يتدخل في أصل العالم وبدئه فحسب ، بل ومن حيث أن فعله في العالم مستمر ، وأنه لا ينقطع عن تدير العالم وفقاً لقانون الملاءمة والكمال . وكأني بسقراط قد وجد في الإنسان صورة الله ، فقال العبارة المشهورة : « اعرف نفسك بنفسك » . وهذه القاعدة الخالدة من قواعد الفلسفة تدعونا إلى أن نلتفت إلى النفس ، وهي شيء ذو قرابة من العقل الذي يدبّر الأشياء جميعاً . فإذا كان بعض المؤرخين اعتبروا « سقراط » مؤسس بناء الفلسفة ، فذلك لأنه أول من

أدرك حق الإدراك أن المبدأ الصحيح للكون هو العقل ، وأن العقل لما كان قادراً على توجيه كل شيء إلى غايته المرسومة له ، فهو وحده قادر على أن يهدي الإنسان إلى تحقيق مصيره .

• • •

لكن أفلاطون هو الذي خصَّ بأرحب مكان تلك الفكرة الداهية إلى أن الأشياء مرجعها إلى مبدأ الكمال . ومعنى نظرية المُثُل الأفلاطونية هو أننا إذا التمسنا الحقيقة الصحيحة التي لا يأتيناها الباطل ، لم نجدتها في الأشياء المادية المتغيرة الحادثة ، وإنما نجدتها في المثال الكامل الخالد الذي جاءت الأشياء على صورته . وأن من يقفون عند الأشياء المحسوسة عيان لا يبصرون الموجودات الحقيقية في عالم الغيب ، ولا يفقهون أن فوق الأشياء المادية الناقصة المتعددة المتغيرة وجوداً عقلياً ثابتاً واحداً كاملاً . ذلك جوهر الأشياء وعلة وجودها . ومن العبث أن يُراد اعتبار العناصر المادية عللاً : إنما العلة الصحيحة هي كمال المثال الذي صُنعت الأشياء على غرارهِ . وإذا حاولنا ، في صعودنا على معارج العالم المعقول ، أن نرتقي إلى أعلى العلة التي يصدر كل شيء عنها ، فلا بد أن نتصورها كلاً مطلقاً : فالعدالة والجمال اللذان نتعقبهما ونسعى حثيثاً إليهما ، لا يمكن أن يكونا غاية إلا لأنهما

أصل للأشياء جميعاً . وإذن فأفلاطون يرى أن فوق المثل نفسها ،  
وفوق العقل والحق ، نجد المصدر الخالد والمنبع البهى الذى يفيض  
على جميع الموجودات حياة ونوراً : وهو الخير .

نعم إن أفلاطون فى تحليقه إلى أوج الوجود قد يبدو لنا  
وكأنه أغمض عينيه فغاب عنه العالم المحسوس ، وكأن الحقائق  
الخالدة قد أخذت بمجامع قلب الفيلسوف ، فأعرض عن كل  
ما يولد ويموت . ولكن أفلاطون أخذ يتحول رويدا رويدا ،  
حتى لنراه يقر آخر الأمر بأن عالم الحس هو أيضاً عالم تدبره  
قوانين الانسجام : نجده فى « طيماوس » ، يصف عالم الحس ، فيبين  
أنه مؤلف على غرار عالم العقل ، وأنه كمرآة للكمال الأعلى ؛  
فالعقل هو الذى يشرف على حركة السماء ، ويضفى على جميع  
الأشياء التناسب والانساق . نعم إن العقل ليس هو القوة الوحيدة  
التي تؤثر فى العالم ؛ فبالإضافة إليه توجد « الضرورة » ، وهى قوة  
عمياء غشوم ، وهى بذاتها لا تولد إلا الفوضى والخلل ؛ لكن  
العقل أقوى من الضرورة ، وهو قادر على أن يستميلها إليه .  
وآخر ما انتهى إليه أفلاطون من رأى هو قوله الذى عبر عنه  
فى كتاب « القوانين » ، بوجود عقل هو ملك السماء والأرض ،  
وهو مبدع النظام فى الكون .

لم يستطع أفلاطون أن يتغلب على تلك الثنائية ، ثنائية المثل والأشياء ، فكان من نصيب أكبر تلاميذه « أرسطو » أن يستنزل المثال من السماء إلى الأرض ، وأن يراه مبدأً باطنياً يمنح الموجودات الحركة والحياة . « فالصورة » عند أرسطو هي « المثل » ، عند افلاطون ، لكنها هي المثل الكامن في الأشياء والذي يوجهها من الباطن نحو غايتها . وما يطلق عليه أرسطو اسم « الطبيعة » إنما هو قوة كلية شاملة تسوق الموجودات إلى تمام وجودها وتحققها ، وتقيم الوفاق بينها جميعاً . فالطبيعة عنده مبدأ من نوع العقل ، إنها تحدث ، من تلقاء نفسها دون روية ، ما يحدثه العقل على ضوء الفكر . فمن أراد أن يفسر الأشياء بالمصادفة فقد حاول محاولة ضائعة . لا شك أن للمصادفة مكانها في الكون ، ولكنه مكان التبعية لا مكان الرياسة ، وهو لا يظهر إلا في الدرجات السفلى من درجات الحقيقة والوجود ، وكلما ارتقينا إلى المعارج التي تبدي فيها الموجودات حريتها ، اتضح لنا الانسجام الذي يصدر عن العلة الكبرى وهي دائماً العقل .

على أن أرسطو بدا له مع ذلك أن السبب الأخير لميل الخلائق إلى الكمال إنما يجاوز الطبيعة ، ويجب أن يُطلب في مبدأ أسمي من العالم . وهنا تلتقي نظرة أرسطو بنظرة أستاذه أفلاطون :

يضع أرسطو فوق العالم مبدأً متعالياً يراه فكراً ، وهو فعل محض . وهذا الموجود المتعالى ، والذي يناسبه اسم « الله » ، يجذب السماء إليه ، فيحدث بذلك حركتها الأزلية . وإنما يتجلى الكمال الإلهى فى النظام الذى يسود العالم ؛ وهذا الكمال الإلهى متميز عن العالم ؛ ولكن العالم وما فيه من خلائق كلها تشتاق إلى هذا الكمال ، فتسعى إليه سعياً حثيثاً .

\*\*\*

وفكرة « الغائية » هذه التى عمقها أرسطو أخذها « الرواقيون » ، فبسطوها وأطنبوا فى بيانها . ولا بد من الإقرار بأن المدرسة الرواقية قد عادت إلى نظرات الفلاسفة الطبيعيين الأوائل ، إذ قالت بأن المبدأ الأسمى هو شىء مادى . وقد قال الرواقيون بما قال به « هرقليطس » من أن جوهر الأشياء هو النار . ولكنهم توسعوا فى الفكرة الذاهبة إلى أن النار ليست إلا العقل الشامل الكلى الذى هو بمنزلة حلقة الاتصال بين الموجودات جميعاً . وهذه الصلة هى تسلسل العلل الذى يُطَلَق عليه اسم « القدر » ، الذى يصرّف الأمور تصرفاً لا مفرّ منه ، ويوجّه سير الحوادث توجّهاً لا مردّ له . وهذا « القدر » هو أيضاً « العناية » التى تسهر على مصالح الموجودات جميعاً وتحفظها من الدمار ، وتصنع من الكون كله تحفةً فنيةً رائعةً .

وواضح أننا إذا تصورنا مبدأ الأشياء مادياً تعرضنا لأن  
 نغفل عن حقيقة الكون وأنه يدبره قانون من قوانين الكمال .  
 وذلك هو ما كشف عنه مذهب « إبيقور » : عاد « إبيقور » ،  
 إلى نظرة أصحاب الذرة الأوائل ، فقال بنظرية آلية عن  
 العالم ؛ قال إن نظام العالم ناتج من التقاء الذرات التقاءً ،  
 مداره على المصادفة والاتفاق . لكن هذه النظرية ، لحسن الحظ ،  
 لم تحظ بالقبول .

\*\*\*

وعاد « أفلوطين » ، ظافراً إلى القول بالعلة الغائية ؛ وأخذ يبين  
 مرة أخرى أن حقيقة الأشياء إنما تأتي من النفس ، وأن النفس  
 بدورها مشتقة من « العقل » ، الذي هو القانون الأعلى للوجود ،  
 وإنما يتجلى العقل في تدبير الكون تدبيراً متسقاً . وصرح  
 أفلوطين ، خلافاً للفلاسفة المسيحيين الأوائل ، وخلافاً للأغنوصيين  
 أن عالم الحس له مشاركة في جمال عالم العقل . ومع ذلك فالعقل  
 نفسه ليس هو المبدأ المطلق : ففوق العقل توجد الوحدة الكاملة  
 في سرها المكتوم وكلها الذي لا يدرك شأوه . فهاء الخير هو  
 المنبع الذي لا ينضب ، هو مصدر كل حقيقة ، هو الذي يولد  
 العقل ، وبواسطته يولد النفس ، وعالم الحس ، مضافاً على جميع



الموجودات شعاعاً من بهائه ، فيقيمها ويمسكها من العدم ويجعلها تتألق في الوجود .

\*\*\*

وعلى هذا النحو نهضت الفلسفة اليونانية في مجرى تاريخها كله ، رافعةً لواء تلك الفكرة الفلسفية التي أشرت إليها : ألا وهي حقيقة الكمال العليا وأثره الشامل في الكون .

لكن هذه الفكرة اليونانية قد توارت عن الأفكار حيناً من الدهر وطال احتجابها في المذاهب الفلسفية الحديثة : شعر الفكر الحديث بما للذهن الإنساني من قوة ، فأراد أن يخضع الأشياء لسلطاته ، وجعل المفكرون من مهمتهم السعى ، إلى أن يكون الإنسان سيداً للطبيعة مسيطراً عليها . وهذا البرنامج الواسع ظاهر المخالفة لوجهة النظر اليونانية . ومع ذلك فإن « يكون » و « ديكارت » اتفقا في إعلانه أساساً للفلسفة الحديثة : فكتاب « المقال في المنهج » الذي اعتبر دستور الفكر الفلسفي الحديث قد صرح من غير موارد أن المقصود من التفلسف كله هو الاستعاضة عن الفلسفة النظرية ، فلسفة القدماء ، بفلسفة عملية تكفل للإنسان السيادة على الطبيعة . وبمثل هذا صرح « يكون » ؛ والفرق بين الفيلسوف الإنجليزي والفيلسوف الفرنسي في هذا الأمر هو أن « يكون » اشتغل بإقامة قواعد الاستقرار ، فلم يعن

بالمنهج الرياضى عناية ديكارت به ، فى حين أننا نجد ديكارت يعلن أن المنهج الرياضى وحده يكفل للإنسان أن يفتح العالم وأن ينتصر على عناصر الكون ؛ وإنا نعلم أن «ديكارت» مع «غاليليو» هما مؤسسا العلم الطبيعى القائم على الرياضيات، ومن المحقق أن الفكر الديكارتي فى هذا الصدد قد ساق الفلسفة فى اتجاه مضاد للاتجاه الذى سارت فيه الفلسفة القديمة .

والواقع أن المنهج الديكارتي هو منهج الرياضيات الشاملة : رأى ديكارت أن السبيل التى تؤدى إلى المعرفة هى التحليل الذى يردّ الأشياء إلى عناصرها البسيطة ؛ حق إن مثال البداهة عند «ديكارت» هو اليقين الذى تستمد منه النفس من ذاتها ؛ ومن المعلوم أن «الكوجيتو» الديكارتي أنشأ فلسفة جديدة من فلسفات النفس، ولكن هذا لا يمنع من القول بأن «الطبائع البسيطة» عند ديكارت هى فى صميمها هندسية ، وجوهر الجسم عنده هو الامتداد الذى هو موضوع الهندسة .

وكل شىء فى الطبيعة يُفسَّر بالامتداد والحركة، ويلغى ديكارت الكيف ويستبقى الكم . وهو حين أراد أن يلغى من مجال الفلسفة ما كان يسميه القدماء بالصور الجوهرية، فالذى ألغاه فى الحقيقة إنما هو مبدأ الكيف ومبدأ الكمال : أعنى النفس التى تنظّم المادة وتبث فيها الحياة . والكائنات فيما عدا الإنسان هى عند ديكارت

أشياء لا روح لها ؛ والحيوان ليس إلا آلة متحركة . ومن هذه الناحية أيضاً اطّرح ديكارت اعتبارات الغائية في الكون . حق أن الكون خلقه الله ، وأن الله هو البارئ واجب الوجود مطلق الكمال ؛ ولكن الكمال الذي يجيء للكون من الله إنما يؤول أمره إلى كمال الآلية الميكانيكية ، . فليس للحركة غاية ولا قصد ، وليس في الكون أثر لرغبة أو توقان : فكأن الأشياء قد حدثت دون أن تتأثر بمجازية الكمال الذي أنشأها وأبدعها ؛ والخلائق عند ديكارت لا تتشبه بالخالق ، وليس بين الله والكون وجه من وجوه المشابهة .

\* \* \*

ويجب القول بأن تلك التفرقة بين الكون وبين الله قد أيدتها الفكرة الدينية عن الخليقة . وفي هذه المسألة أيضاً جاءت الفلسفة الحديثة مخالفة للفلسفة اليونانية . ذهب أفلاطون إلى أن العالم إنما صدر عن الله بواسطة فيض يشبه الإشعاع الصادر من منبع نور ، فلئن كان ذلك الفيض يقتضى في كل مرتبة من مرتب الوجود ابتعاداً عن المبدأ ونوعاً من الهبوط ، فذلك لا يحول دون بقاء الصلة بين الخلائق وبين الكمال الأعلى الإلهي ، لكن الفلسفة المسيحية كانت قد تصورت تصوراً مجرداً العلاقة بين الله والعالم ، الحب ، فهي وإن جعلت الغاية في الاتحاد السرمدى بالله . إلا أنها قد

سلّمت بنوع من الثنائية ، حتى كان من العسير أن نفهم الصلة بين الله ومخلوقاته . ثم جاءت الفلسفة الإسلامية فصرحت بتنزيه الله عن مشابهة المخلوقين ، وأعلنت مبدأ التوحيد في قوة ، واستبعدت كل ما يمكن أن يشتم منه الشرك بالله ، محاولةً أن توفق بين الفلسفة والدين ، بين العقل والنقل . لكن تلك الأنظار بدورها قد افضت في النهاية إلى إقامة نوع جديد من الثنائية يفصل بين العالمين .

ولكن ديكرت التقط تلك الثنائية الدينية وأمعن فيها بنظريته في حرية الله والحقائق الأبدية ؛ وينحو مذهبه إلى أن يجعل من الخلق فعلاً تعسفياً تحكيمياً . ومن ذلك الحين انقطعت الصلة انقطاعاً تاماً بين العالم وبين مبدأ الكمال والكيف ، وأُسلبت الأشياء إلى الهندسة بلا دفاع .

\*\*\*

ونهض «اسينوزا» فأيد «ديكرت» في رأيه أن المنهج الرياضي أنسب المناهج للفلسفة . ومن أجل هذا رتب اسينوزا كتاب «الأخلاق» ترتيب كتب الهندسة . ولكن اسينوزا لم يقبل الثنائية التي يتضمنها اللاهوت المسيحي والإسلامي ، بل سار في الاتجاه المخالف شوطاً بعيداً أدى به إلى القول بأن الفكر والامتداد إنما يعبران عن ماهية الله . وطبق اسينوزا المنهج الرياضي على

مشكلة الخلق ، فصرح بأن الأشياء تصدر عن ماهية الله بضرورة كالضرورة التي تجعل خواص المثلث ناتجة عن ماهية المثلث . ولكن « اسينوزا » قد استبعد فكرة الكمال المتعالى ومضى فى هذا النحو من التفلسف حتى انتهى به الأمر إلى مثل ما انتهى إليه « ديكارت » ، من قبل فقال : لا قصد ولا غاية فى حصول الأشياء . وربما كان أهم منافع المنهج الرياضى فى نظر « اسينوزا » هو أن هذا المنهج يخلصنا من العلل الغائية : إذ العلل الغائية - فى نظره - هى أوهام مصدرها خيالنا الذى يوهمنا أن الأشياء موجودة من أجل الإنسان ومن أجل حاجاته ومصالحه . ولكننا إذا ارتقينا بالذهن إلى المعرفة الحقة تخليتنا عن أقوال العوام بوجود الغايات وعن معانيهم فى الخير والشر ، ولم يبق أمامنا إلا القول بأن جميع ما فى الطبيعة إنما يحدث بمقتضى ضرورة أزلية .

\*\*\*

وجاء « ليبنتز » وأخذ يدل على قلة كفاية « الآلية » والهندسة فى تفسير الكون . وكانت محاولته العود إلى القول بالغائية من أهم الأحداث التى عرفها الفكر الحديث . أعلن « ليبنتز » - خلافاً لديكارت ولاسينوزا - أن الامتداد ليس حقيقة جوهرية وإنما الجوهر الحق من نوع هو أبعد غوراً ، هو مبدأ من مبادئ الكيف وهو قوة دائمة الفعل . ومن أجل هذا وجدنا « ليبنتز » يعود

مجتازاً مذاهب المدرسين ، إلى مبدأ أرسطو . يريد الفيلسوف الألماني استرجاع ما كان « للصور الجوهرية ، من شاو سابق ، ويريد في الوقت نفسه أن يقيم أمام « الميكانيكية ، فكرة العلة الغائية . ولقد شعر « ليبنتز ، بما في وجهة النظر اليونانية من سمو بالنسبة لوجهة النظر الحديثة ، فذكر نصاً من « فيدون ، يحكى فيه أفلاطون — على لسان سقراط — الأثر الذي تركته في نفسه مقالة « أنكساغوراس ، بأن الأشياء دبرها العقل . ومن أجل هذا لم يقبل ليبنتز مبدأ التناقض على أنه مبدأ ذو قيمة في ذاته ؛ ورأى أن ذلك المبدأ إنما ينطبق على الأمور الرياضية . لكن النمط الرياضى ليس هو النمط الحقيقى ، والمبدأ الذى ينفذ في الحقيقة هو مبدأ « السبب الكافى ، أعنى مبدأ الملاءمة والكمال الذى بمقتضاه دبر الله الأشياء على أحسن ما يمكن من الوجوه .

وبما يؤسف له أن محاولة « ليبنتز ، لم تنجح النجاح كله : فإن هذا الفيلسوف الكبير الذى كان أيضاً عالماً هندسياً كبيراً ، بقى سجيناً للتحليل . أليست فكرة الجوهر الفرد « موناڊ ، ، وهى تلك الفكرة العميقة ، قد شأهت بعض الشيء بسبب اعتبار الجواهر الفردة بمثابة العناصر البسيطة التى يودى إليها تحليل الأشياء ؟ إننا ندخل — على هذا النحو — فى نطاق الامتداد والعناصر المادية . وقد قطع « ليبنتز ، فى طريق التحليل شوطاً بعيداً ، فردّ الجوهر

إلى الموضوع المنطقي الذي يحوى في نفسه جميع المحمولات عليه، ورأى أن فكرة الجوهر الفردي متضمنة من قبل جميع ما سيقوم به ذلك الجوهر من أفعال وجميع ما سيقع له من أحداث . فأى مكان يبقى بعد هذا لمبدأ السبب الكافي ؟ وكيف يتميز عن مبدأ التناقض؟ والواقع أن « ليبنتز » ليتكلم أحياناً وكأن السبب الكافي يمكن أن يوجد بالتحليل ؛ ولكن الذى يبين أن فلسفة ليبنتز لم تسلم حقاً بنزوع الأشياء إلى الكمال ، إنما هى نظرية الاختيار ، اختيار الله للعالم الذى هو أحسن العوالم الممكنة ، والذى لا يُستطاع فيه تغيير شيء ولا مثقال حبة من خردل . فما أبعد الفرق بين تلك النظرة الجامدة عن العالم وبين نظرة أفلاطون وأرسطو حيث تجد الأشياء طامحةً إلى أن تتخطى حدود نفسها ، مأخوذةً بسحر الخير مستجيبة لما فى الجمال من جاذبية !

\* \* \*

إننا لا نعجب إذن حين نرى أن الفلسفة الحديثة لم تهتدِ بهدى « ليبنتز » . فهانحن أولاء نرى « كانت » - وقد سحرته « فيزيقا » نيوتن - يحكم بأن الطبيعة ليست شيئاً غير آلية ، « ميكانيكية » وها هو ذا فى كتابيه « نقد العقل الخالص » و« نقد العقل العملى » يقابل بين عالم الطبيعة وعالم الحرية ويفرق بينهما تفريقاً قاطعاً . ومع ذلك فقد شعر « كانت » أن مثل هذه الثنائية لا سبيل إلى قبولها ، فبذل

الجهود لسد الهوة التي تفصل بين العالمين . وكتاب « نقد الحكم ،  
معناه أن الطبيعة لا يُستطاع تفسيرها تفسيراً كاملاً بواسطة  
« الآلية » ، وأنها تتضمن غائية هي في الأشياء بمثابة الدليل على  
الحرية . لكن نظرية « كانت ، فيها مع هذا تشويش وخط  
عجيب . فكان فيلسوف « كُنْجسبرج ، يسترد يد  
ما أعطاه بالأخرى : تراه يسلم بالغائية في الطبيعة ، ويريد  
في الوقت نفسه أن يقرر أن الطبيعة إنما تسير دائماً سيراً « آلياً ،  
ولعل هذا التناقض يدل على مبلغ الصعوبات التي تردى فيها الفكر  
الحديث حين تخلى عن تراث الفكر القديم . ومع ذلك فيبقى حقاً  
أن « نقد الحكم ، قد فتح الطريق لفلسفة الطبيعة عند « شلنج ،  
وإن كانت فلسفته تتخذ في أغلب الأحيان صورة الأساطير .

\*\*\*

وقام في النصف الأول من القرن التاسع عشر في فرنسا  
الفيلسوف « أوجست كونت ، الذي أراد بفلسفته « الوضعية ، أن  
يلغى جميع النظريات والفروض الميتافيزيقية ، وحاول أن ينكر  
البحث عن العلل الأولى وعن العلل الغائية : استبعد « كونت ،  
فكرة الغائية من حيث أنها تقيد نظرة عن مصير الكون . ولكن  
الغائية لم تلبث أن استعادت سابق مكانها عند الفلاسفة الروحانيين  
الذين سلكوا سبيل الفيلسوف « مين دويران ، ( ١٧٦٦-١٨٣٤ )



صاحب النظرية المشهورة عن «المجهود» : فهذا «رافيسون» (١٨١٣ - ١٩٠٠) - وقد تغذى بفكر أرسطو - يذهب إلى أن الآلية في الطبيعة ليست بكافية، وأن الأشياء جميعاً، حتى أشدها جموداً وأقلها حركة، لا تنحلو من طموح إلى النظام والانسجام واستجابة لنداء الخير والكمال. وأيد «لاشلييه» (١٨٣٤ - ١٩١٨) فكرة الغائية مبنياً أن العلل الفاعلة التي يرسمها العلم عاجزة عن أن تفسر العالم أو أن تكفل ثباته. ونقد «بوترو» مبادئ العلم الوضعي وطبيعة القوانين التي ينتهي إليها : فوجد فيها «الإمكان» بدلاً من الضرورة وأقر بأن باب الحرية مفتوح أبداً على مصراعيه.

وبعض هذه الأفكار التي أشرنا إليها قد بسطها الفيلسوف الرياضى الفرنسى «هنرى پوانكاريه» (١٨٥٤ - ١٩١٣) : فقد رأى أن الفرض يؤدي مهمة كبرى، وأن الهندسة أولاً ليست تعريفاتها ولا مبادئها إلا اصطلاحات من عمل الذهن نفسه، وأن نظريات الطبيعة والكيمياء ليست إلا أبسط وأيسر ما وجدنا من وجوه تتمثل بها الوقائع من بين وقائع أخرى مثلها.

• • •

لكن النظرية الكبرى التي انتهت إليها هذه الحركة الفكرية

كلها قد أطرحت العلة الغائية من جديد . فمن العجب أن « برجسون »  
الذى نهض أمام العلم الوضعي ، مطالباً في قوة بحقوق الميتافيزيقا ،  
والذى أبان في جميع المواطن فعلَ النفس وأثرها ، أبي مع ذلك  
أن يسلم بأن ذلك الفعل موجه نحو غاية . وبعد أن أنحى باللوم  
على « روح الهندسة » *L'esprit de géométrie* التي سادت في  
الفكر الحديث، وبين أنها لا تناسب الفلسفة ، انقلب على الفلسفة  
اليونانية ، وأتهمها بأنها فلسفة الوقوف والجمود . ولنعترف  
أن مثل ذلك اللوم يمس وجها من وجوه نظرية المثُل . ولكنه  
رغم هذا لا ينال من صميم تلك النظرية الأفلاطونية ، وهو على  
كل حال لا ينصب على النظرة الأرسطاطاليسية التي ترى الصورة  
مبدأً باطنياً هو مبدأ حركة وحياة . وإذ رأى « برجسون » أن  
« الميكانيكية » لا تستطيع أن تهض مفسرةً للأشياء ، فقد حكم  
أن الغائية ليست إلا « ميكانيكية » مقلوبة ، وأنها تفيد هي أيضاً  
أن كل شيء قد أعطى من قبل . وأعرض « برجسون »  
عن الأمرين جميعاً : عن الآلية وعن الغائية ، واستعاض عنهما  
بما سماه « وثبة ليست في الحسبان » وتلك فكرة « التطور  
الخالق » الذي يحل محل فكرة الغائية . ولكن إذا صح أن النقد  
الذي يوجهه « برجسون » إلى الغائية نقدٌ سليم إذا كنا بصدد

نظرية كمنظريّة « لينتزر » التي رُسمَ فيها مستوى الأشياء من قبلُ - فإن ذلك النقد البرجسوني لا ينال من الفكرة التي رسمها فلاسفة اليونان ورفعوا لواها . وفكرة « التطور » لا تستطيع على كل حال أن تقوم مقام فكرة « الكمال » : فالتطور لا يكون خالقا إلا لأنه يلي نداء المبدأ ذي الكمال الأبدي . أجل إن « الكمال الخالق » الذي عرفته الفلسفة اليونانية هو العلة الصحيحة والأصل الذي يجب على الفلسفة الحديثة بدورها أن تلتقي عليه ضوءا ساطعا .

\* \* \*

وجاءت مذاهب الوجودية فمادت إلى مباحث القرون الوسطى وقامت في فرنسا ووجودية « سارتر » التي هي مستمدة من دعوى « الوجود سابق على الماهية » ، فكانت تعبيراً عن الاعتقاد بالحرية المطلقة : رأى « سارتر » أن الوجود الحي المفكر يصنع نفسه على قدر « الموقف » الذي يختاره ؛ وذلك الموقف يعتمد آخر الأمر عليه هو نفسه ؛ وليست الحرية ممكنة إلا لأن الوجود ليست له ماهية تحدده .

إلا أن إنكار الغائية في الفكر الحديث يبدو نتيجة من نتائج الطبيعيات الرياضية . لقد تسلطت فكرة القوانين الطبيعية على

عقول الناس ، فلم تترك مكاناً لتعيين من نوع آخر . ويخيّل إلينا أن هذه الفكرة الناهية إلى أن المادة خاضعة لقوانين نعرفها بالحساب ، ففكرة استبعدت العلة الغائية والحرية في وقت معا ، حتى أننا نجد في زماننا هذا أن النظرية التي تقول بأن القوانين الطبيعية لا تعبر عن اليقين بل تعبر عن احتمال كبير ، مع استثناءات نادرة ، هذه النظرية جعلت البعض يظن أن الحرية في الطبيعة شيء استثنائي ، وأنها تقوم على المصادفة !

والحق أن النتيجة التي استخلصتها الفلسفة الحديثة لم تكن نتيجة ضرورية : بل إنها تقوم على شيء من سوء التفاهم . فمن المحقق أن العلم الوضعي الذي ولد من الطبيعيات الرياضية والذي انفصل عن الفلسفة ينحاز على الدوام إلى جانب الميكانيكية ويستبعد الغائية . ولكن العلم الوضعي — على رغم الانتصارات التي احتفل بها — ليس هو كل المعرفة الإنسانية: فليست مهمة المعرفة أن توفر لدينا التطبيقات العملية ، وأن تجعلنا ندرك الأشياء بقدر ما نستطيع أن تؤثر عليها وأن نحولها إلى مصلحتنا ، بل مهمتها الأولى أن تصل إلى الحقيقة كما هي في ذاتها . ثم إن العلم الوضعي المشتغل بالمادة وبالكَم ، إنما يقف بنا على سطح الوجود ، إذا جاز هذا التعبير . وأمّا الفلسفة فأولى بها أن تجعلنا ننفذ إلى أعماق الوجود وإلى الحياة الباطنة . وإذن فيجمل بنا أن نعتبر الحقيقة الميتافيزيقية متممة

للحقيقة الطبيعية ، وإذن فنحن لانرى تناكراً بين هاتين الحقيقتين ، وإنما التناكر الصحيح قد رسمه أرسطو بين الغائية والحرية من جهة ، وبين الآلية والمصادقة من جهة أخرى . والقانون الطبيعي هو أيضاً ينافي المصادقة وينتمى إلى جانب العقل ، والنظام الذى يعبر عنه هو بمثابة رمز لنظام أرفع ؛ والاطراد الذى مسرحه المادة هو أساس لقوانين الانسجام والكمال التى تحكم العالم .

وإذن فينبغى علينا ، دون أن ننزل عن مغام العلم الحديث ، أن نعود إلى الحقائق الكبرى التى كشفت عنها الفلسفة اليونانية : فالعقل هو العلة الصحيحة للأشياء ؛ وقوانين الطبيعة - على ما لها من صرامة - لا تنال من الحرية التى هى قانون العقل ، والتى بها تنتظم الأشياء فى انساق وتنزع إلى غايتها المطلقة .

قلنا إن العلة الصحيحة هى العقل . وإذا شئنا أن نرقى إلى أسمى من العقل قلنا إن العلة الصحيحة هى « الخير ، الذى يُعيد إليه منذ الأزل جميع الموجودات التى خلقها بجوده وكرمه ، وهى الكمال المطلق الذى هو مصدر وجود العالم .

## بين العلم والأخلاق

اتهام العلم : العلم مخالف للأخلاق - دفع الاتهام :  
العلم غير مسئول عن الآثام التي تقترف باسمه - المسئول  
هو الإنسان ، لا العالم - أخلاق العلم : الكرامة ،  
والائتلاف ، والحرية - العلم والحكمة : السعادة والسلام

اشتدت الحملة على العلم في عصرنا هذا بين كثيرين من المفكرين  
من غربيين وشرقيين ، ولعل السبب في تلك الحملة العنيفة هو  
ما شاهده الناس من آثار العلم في الحريين الأخيرتين : ذهبت  
ملايين النفوس ضحية في ميادين القتال ، وفي معسكرات  
الاعتقال ، في المراكز الصناعية ، وفي المدن الآمنة ، في الجو  
وفي البحر ، وأخيراً بالقنابل الذرية التي تحمل إلى الناس أضمن  
موت في أوسع مدى ، من غير تمييز بين المحاربين وغير المحاربين  
فكان طبيعياً أن يتساءل الناس عن المسئول عن تسليح الشعوب  
بأسلحة الفتك هذه ، وكان طبيعياً أيضاً أن يكون أول ما يخطر  
ببالهم ، جواباً عن هذا التساؤل ، أن القتل والدمار على اختلاف  
أنواعه ، إنما تم بفضل العلم وببركة جهود العلماء .

\* \* \*

فإذا اعترض البعض بأن الحرب أمر شاذ في تاريخ الإنسانية ،  
وأن زمان السلم مبرراً من ويلاتها ، نهضت الوقائع لتفنيد هذا

الرأى : فهذه الآلات التي تزيدها جهود العلماء كل يوم دقة وابتداعاً لم تقدم إلى المجتمع الإنسانى حياة السعة والرفاهية والاطمئنان التي طالما وعدوه بها . ويظهر أن في وضع السؤال نفسه سخريه مرة : فالعمل في المصانع ، ذلك العمل الذي لا يكاد يترك للعامل وقتاً للتنفس ، إنما يعقب - في الآونة الحاضرة - التشرذم والبؤس والبطالة في أرجاء العالم ، حتى ليخطر ببال من ينظر في حال بعض العمال في الغرب أن الإنسان أصبح ، بفضل التقدم العلمى الصناعى ، عبداً للآلة بدلاً من أن تسخر الآلة في خدمة الإنسان . ولم يفت حكام الشرق والغرب أن يلاحظوا هذه الظاهرة العجيبة ؛ فهذا «رابندرانات تاجور» يقول : «إن الحياة المادية القائمة على العلم تحل لبعض الناس لأن لها كل صفات الرياضة البدنية : تتظاهر بالجد ، ولكنها خلو من العمق، وهى لا تحسب للطبيعة الإنسانية العالية حساباً ، . وهذا «أيتشتين» لا يقل قسوة في الحكم على العلم عن حكيم الهند، إذ يقول : «لم يُستخدم العلم حتى اليوم إلا في استعباد الناس : ففي زمن الحرب يُستخدم العلم في تسميمنا وفي تشويهننا ، وفي زمن السلم يجعل حياتنا قلقة مرهقة . كنا ننتظر أن يستعين الناس بالعلوم للانصراف إلى الأعمال العقلية ، فینالوا بذلك أكبر قسط من الحرية . ولكن بدلاً من ذلك صيرتهم العلوم عبيداً للآلة .

إن السواد الأعظم من العمال ينفقون نهارهم الطويل الرتيب الخالي من البهجة ، وهم في أشد حالات التبرم والضجر ، ولا يمنعم ذلك من الارتعاد خوفاً على أجورهم الضئيلة .

ذلك هو الاتهام في قوته . وخلاصته أن العلم يخالف للأخلاق ؛ لأنه يفسد في الأرض ، ويسفك الدماء ، ويجعل الإنسان عبداً للآلة ، ويزوّد الحماقة والبغضاء بأخطر سلاح .

\* \* \*

إننا جميعاً نكره هذه الآثام التي تقترف باسم العلم ، ونمقت آثار الحرب والموت التي تجهّز في ظل المعامل والمختبرات العلمية ، ونشعر بمضض شديد كلما فكرنا في تلك المدنية المادية المنسوبة إلى العلم ، تلك المدنية التي تجعل غاية الإنسانية أن تظفر بالمتع المادية ، وأن توفر لها وسائل الراحة الرخيصة والترف الغليظ . ولكن هل العلم مسئول عن كل ما ينسب إليه ؟ .

إن الآثام التي اقترفت باسم العلم حق لا ريب فيه . ولكن العلم ليس مسئولاً عنها . والذي يوقع الناس في الخطأ بهذا الصدد هو أنهم يخلطون غالباً بين العلم ذاته وبين التطبيقات المستفادة من العلم . ولكن العلم ، لحسن الحظ ، شيء آخر غير التطبيقات العلمية . العلم الصحيح هو البحث عن الوقائع والقوانين بحثاً بريئاً منزهاً



عن كل غرض سوى المعرفة . ومهمة الباحث ، في علم الطبيعة أو في علم البيولوجيا أو في علم الاجتماع ، مقصورة على جودة التخصيص للوقائع وإقامة القوانين منها . فمهمته مهمة عقلية محضنة ، وليس له من قصد إلا تقدم الذهن الإنساني تقدماً غير محدود . وجماع حياة العالم في كلمة : المعرفة والمعرفة لا أكثر ولا غير .

صحيح أن الغالب في مجال العلم أن يكون الرجل الذي يعرف هو نفسه الذي يعمل ، وأن الذي يكتشف هو عين الذي ينتفع من الاكتشاف . ولكن الحقيقة أنه متى تم للعالم أن يركب جهازاً أو آلة من أجل غاية تتجاوز المعرفة الخالصة ، فقد خرج من مجال العلم ولو لم يخرج من المعمل ؛ لأنه إذا تغير قصده تغيرت عقليته أيضاً ، وأصبح إنساناً له أهواؤه وآراؤه ومصالحه ، فليس عجيباً أن يسخر معرفته لخدمة هذه الأهواء والآراء والمصالح .

لكن مما يؤسف له أن الكشوف العلمية التي يزيد عددها منذ قرن من الزمان زيادة رائعة ، إنما بزغت في مجتمعات لم تؤت من الحكمة إلا حظاً يسيراً ، فنتج عن ذلك أنها لم تسخر تلك الكشوف دائماً في غايات سليمة كريمة ، وإنما استخدمتها في الخير حيناً ، وجعلتها في خدمة الشر والعدوان أحياناً . ولكن ليس الذنب في ذلك ذنب العلم ولا ذنب الكشوف العلمية ، وإنما هو ذنب

المجتمع الإنساني الذي يحمل في نفسه جرائم السوء . قد يستكشف البيولوجي أثر مادة ما في بدن الإنسان ، فيستخدم الطبيب ذلك في العلاج ، ويستخدمه المجرم في القتل . ويستكشف عالم الطبيعة القوانين التي تقوم عليها السينما والراديو ، فيستخدمها بعض الناس لإذاعة الحق والخير والجمال ، ويستخدمها بعضهم لنشر الأكاذيب والآثام والحماقات . وقد استكشف العلماء وسيلة لتحطيم الذرة وحبس طاقتها ، فاستخدمها بعضهم لصنع القنبلة الذرية ، وقد يستخدمها آخرون غدا لرفع مستوى الحياة الإنسانية .

وإذن فليس من الإنصاف أن يُرمى العلم بما رعى به من اتهام ، وأن يحمل عبء ما اقترف باسمه من آثام ، بل الأقرب إلى الانصاف أن تلقى جميع هذه التبعات على الإنسان .

\*\*\*

الحق أن العلم الصحيح يحمل في نفسه مثلاً أعلى ومذهباً أخلاقياً رفيعاً ، لو اهتدينا إليهما ، واستوحيناهما في حياتنا لأوتينا نبلاً وسعادة .

يتضمن العلم ثلاثة معانٍ أخلاقية جليّة هي قانونه وحياته :  
الأول هو أن إقدام الفكر وجرأته الفاتحة هما صميم الكرامة الإنسانية : ذلك لأن العالم الصحيح باحث مبرأ من الأغراض كما

قلنا ؛ لا يعنيه ، حين يواجه مشكلة ما ، أن يعرف هل يكون حلها نتائج عملية أو لا يكون ، ولا يبالي إلا بأن يستعيض عن جهل بعلم . ولعل أجمل وأروع الكشوف العلمية ماتم منها في علم الفلك . فهذه الكشوف نماذج للانتصار العلي ؛ لأنها غيرت فكرتنا عن الكون ولأنها جعلت الغلبة للعقل في مجال كان يبدو بعيداً عن متناول العقول . ومع ذلك فلم ينتج عن هذه الكشوف الفلكية تطبيقات عملية من شأنها أن تبدل أحوال معاشنا .

ومتى كانت الكرامة الإنسانية في ذلك الجهد الموصول للمعرفة فإن مهمتنا الأولى أن نعمل بحيث يكون للناس جميعاً نصيب في هذه الكرامة ؛ فنيسر لهم أن يتعلموا في كل سن ، وفي كل طبقة ، وفي أى جنس ، ونهي لهم السبيل إلى أن يتذوقوا الأمور الروحية واللذائذ العقلية ، وأن يقدروا الحقائق التي قام عليها الدليل .

والمعنى الثاني الذي ينطوى عليه البحث العلي هو العمل على جمع الكلمة والاتلاف من طريق ذبوع الحقائق العلمية ، وقبول الناس إياها ، لا باعتبارها حقائق خاصة بطائفة من الطوائف ، أو بوطن من الأوطان ، أو بجنس من الأجناس ، بل باعتبارها نوراً يهدى جميع أفراد الإنسان في هذه الدنيا ، ذلك أن للعلم ميزة انفرد بها ، وهي أنه واحد في كل مكان وهدى جميع الناس ؛

فمجموع ٢ و ٣ = ٥ سواء كنا في القاهرة أو في لندن؛ ولا يختر  
 يبال عاقل أن ينازع في هذه الحقيقة الرياضية . وكذلك في العلماء  
 إسرائيليون ، وفيهم مسيحيون ، وفيهم مسلمون . وفي العلماء ألمان  
 وأمريكان وروسيون . ولكن لا يستطيع أحد أن يزعم  
 أن تكون هناك هندسة إسرائيلية مخالفة للهندسة المسيحية  
 أو الإسلامية ، ولا علم طبيعة الماني متميز من علم الطبيعة الأمريكي  
 أو الروسي . . . ذلك أن الحقائق العلمية يمكن أن يقوم عليها  
 البرهان ؛ والبرهان القائم على العقل والتجربة هو الذي يخلق  
 الوحدة والاتفاق بين الناس ، ويدعو إلى الائتلاف عفواً  
 ومن غير إكراه .

بما يؤسف له أن الناس لم يتفقوا إلى الآن إلا على قليل من  
 الحقائق العلمية المتصلة بالمادة وبالحياة . ومن نكد الحال أنهم فيما  
 عدا ذلك يجدون أنفسهم مضطرين إلى البت في مشكلات لم يمسا  
 العلم إلا مساً رقيقاً . ومن أجل هذا أصبحوا متفقين في بعض  
 الأمور ، ومختلفين أشد الاختلاف في أمور أخرى . ولكن  
 أقل ما يقال أن المثل الأعلى الذي يترسمه العلم يدلنا على الطريق  
 الذي ينبغي أن نسلكه لتلطيف حدة هذا الاختلاف ، وهو أن  
 نزيد عدد الحقائق اليقينية ، وأن نعمل على إذاعتها في الناس ،

وأن نطلب إلى العقل في جميع المناظرات مبدأ الوثام والاتفاق .  
 والمعنى الثالث الذى يتضمنه العلم هو احترام حرية الفكر ،  
 والاعتقاد بأن الحرية هى الشرط الضرورى لكل تقدم . وطرافة  
 العلم أنه بقى دائماً بعيداً عن روح الضغينة والاضطهاد ، وأنه جعل  
 الحرية قانونه واعترف بها للجميع من غير استثناء . كثيراً ما نرى  
 من أصحاب العقائد الدينية أو المذاهب السياسية من لا يترددون  
 فى استعمال العنف فى الدعوة إلى آرائهم أو النيل من خصومهم .  
 كم من نفوس أزهقت من أجل « الصليب » ، أو من أجل « الهلال » ،  
 ولكن هل أزهقت نفس واحدة من أجل نظرية فيثاغورس أو  
 قانون الأجسام الطافية ؟ وكم من دماء أهدرت من أجل « الفاشية »  
 أو من أجل « الديمقراطية » ، ولكن لم تهدر قطرة دم واحدة من  
 أجل قانون الجاذبية أو قانون النسبية .

ذلك أن بين العلم والحرية وحده لا تنقسم عراها . فبينما نرى  
 العقائد والمذاهب تعتمد فى الغالب على العنف والإكراه ، نرى  
 العلم يظل دائماً نقي اليدين من الدم المراق ، ونراه مستغنياً عن تأييد  
 السلطات أو مناصرة الأغليات ؛ لأن له من فضائله الخاصة  
 ما يكفل له الغلبة والذبيوع ، ولو بعد حين . وإذن فكرامة الفكر  
 والوثام والحرية هى المبادئ الثلاثة التى تقوم عليها أخلاقيات العلم .

ولو أنصت الإنسانية لهذه المبادئ لذهبت الحروب ، والمظالم الاجتماعية ، واستغلال الإنسان ، ولقضى على عهد البؤس والجهل ، ولاتتهت جميع ضروب الظلم التي تزهد حياة الأفراد وحياة الشعوب .

\*\*\*

ومن أجل هذا وجب أن نتساءل : أنمضى في استخدام العلم ؟ أم ننصت إلى ما يقدمه لنا العلم من هداية أخلاقية ؟ ويجب علينا أن نختار الآن ؛ فقد اهتزت أرجاء العالم ولطخ بالدم أديمه في زلزال هو أشد هولاً من كل ما عرف من قبل . وما كادت الإنسانية المكروبة تتنفس من هذه الغمة حتى أخذت تتلس السبيل إلى درء كارثة جديدة ، وهي عالمة أنه لا بد لتثبيت السلام الدائم ، وتنظيم التعاون بين الأمم ، من الاهتداء إلى مبادئ أخلاقية يدين لها الناس جميعاً بالقبول . والعلم بكفل للناس هذه المبادئ التي توجههم إلى أرفع ضروب النشاط ، وتدعوهم إلى النسخ ، وتجعلهم إخواناً متحابين .

\*\*\*

إن حياة النفوس الإنسانية دراماً هائلة ضافية ؛ ونحن لا ندرى شيئاً كثيراً من تفاصيلها ودقائقها اللامتناهية ، ولا نعرف إلا القليل جداً عن تتابع فصولها ومشاهدها المتغيرة . لكن

الفلاسفة الروحيين - وهم هداة الإنسانية الحقيقيون - يدعوننا دائماً إلى الاعتقاد بأن للكون إلهاً لا متاهياً، واسع العلم والقدرة والرحمة، وأن العالم لا يتحرك مصادفةً واعتباطاً، بل يسير كل شيء فيه إلى أحسن مما كان، ولا يمكن أن تكون خاتمة الدراما الإنسانية إلا استكمال السعادة مع تحقيق السلام. والفلاسفة بهذه النظريات المشرقة المتفائلة يمسحون على جراح نفوسنا، ويهدئون من نائرة خواطرنا، وكأنهم يدعوننا إلى أن نمد البصر إلى السماء ذات النجوم: فهناك، فوق ظلام القهر والشر والمادة، تتلألأ معاني الحرية والحق والجمال.

تلك المعاني هي النجوم اللوامع تضيء للإنسانية حياتها، وتشبع الدفء في قلوبها، وتضع في نفوسها آمالاً كباراً.

## مصير الإنسان

السؤال : سبب الوجود - مشكلة الشر - الارتباب  
- التأمل في حال الإنسان - تاريخ الإنسانية -  
إلحاح السؤال .

---

لماذا وجد الإنسان في هذه الدنيا وما المهمة التي يؤديها فيها؟ ،  
سؤال ليس بغريب ولا بجديد على أحد من الأحياء . فكل حي  
ذاق مر الحياة وحلوها هو عرضة لأن يمر بذهنه سؤال كهذا يوماً  
ما من أيام حياته . وليس ثمة إنسان - كائناً ما كان قسطه من  
الثقافة والسعادة - إلا وقد عرض له ، تحت تأثير ظرف من  
من الظروف المحيطة به ، أن يفكر في هذه المشكلة ، مشكلة  
المصير الانساني .

لكن لا ريب أن الإنسان لا يطرق أمثال هذه المسائل كل  
يوم وإنما يصل إليها أخيراً وفيما ندر وشذ من الظروف والأحوال  
ثم لا تلبث مشاغل الأيام أن تطفئ عليها فتتركها في زوايا النسيان .  
فما هي إذن هذه الظروف التي تعرض لنا فتنزعا من مستوى  
الحيوان ، وتسمو بنا إلى فكرة هي الفكرة الخلقية والفكرة  
الإنسانية على الحقيقة ؟



لو أن كل شيء في الحياة كان يجري على هوى المرء وورعائه ،  
لما كان ثمة مجال لأن يتساءل لماذا وجد في هذه الدنيا . فلو حدث  
اتتلاف تام بين ميول الطبيعة البشرية وبين مجرى الأمور الخارجية  
لكان خليقاً أن يترك العقل في شبه إغفاء .

ولكن الذى يوقظ العقل ويبعث فيه القلق على مصير الإنسان  
هو الشر ، الشر الذى يلزم الإنسان فى سائر شئونه ، ولا يكاد  
يفارقه حتى فى متعه وملاذه العاجلة التى يسميها سعادة .

حين تقع أبصارنا على هذه الدنيا تبدو لنا بادية الأمر كأنها  
قد كسيت أبهى حلل السعادة ؛ عند ذلك تنطلق طبيعتنا وهى  
تفيض بالآمال والأوهام . حتى إذا آن أن تخبر فى الحياة شأناً  
من شئونها القاسية ، أو تمارس حقيقة من حقائقها المريرة ، انقلبت  
على الأثر ذاهلة ساخطة متبرمة ، وحسبت فيما قد أصابها من ذلك  
أن نوااميس العدالة قد امتهنت ، وأن قوانين الطبيعة قد اجترحت ؛  
ومن ثم يكون هذا الارتباب الطويل أولاً ، يعقبه ذلك الاحتجاج  
الصامت على كل ما فى الحياة من هموم وكروب ، وهذا كله ليس  
بمانع أن يظل إيماننا ثابتاً ويقيننا لا يتزعزع وقتنا لا تلين .

فى الحق أن بؤس الحياة يدهشنا أكثر مما يروعنا طالما كنا  
شباباً ، وقد يبدو لنا أن ما أصابنا من مكروه هو من شذوذ

الأمور، ونؤثر أن تهم أنفسنا على أن نرتاب في عدل الله وحكمته ،  
 ونعتقد أننا إذا كنا قد لقينا في حياتنا خيبةً أو خذلاناً ، فالذنب  
 ذنبنا لا ذنب الأقدار : وهكذا نعد إلى مغالطة أنفسنا لرفه عنها  
 ألم الخيبة والفشل ، ونمنىها بأن نبدل قصارى جهدنا لنكون في غدنا  
 أمر وأظن مما كنا في أمسنا ويومنا ؛ لكن مهارتنا تبوء أيضاً  
 بالفشل مرة بعد مرة ونظل مع هذا مستمسكين بعري الإيمان  
 واليقين ، حتى إذا سدد الدهر إلينا سهماً مريشاً ، أفقنا بما غشينا  
 من الوهم ، وفتحنا عيوننا فجأة ، فرأينا الحقيقة المؤلمة ا وحينئذ  
 يتلاشى ما كان قد بقي في نفوسنا من آمال وحينئذ يقوم في أثرها  
 ضرب من الموجدة والسخط الذى يضاعف تباريح الشقاء ،  
 وحينئذ من أعماق قلوبنا التى أضناها الأسى ، ومن قرارة عقولنا  
 التى أصيبت فى أعز معتقداتها ، لا مناص من أن يرتفع هذا  
 السؤال الحائر الحزين :

«لما إذن قد وضع الإنسان فى هذه الدنيا ؟»

وليس شقاوات الحياة وحدها هى التى توجه نفوسنا نحو  
 هذه المعضلة ، بل الواقع أنها تصدر عن سرائنا كما تصدر عن ضرائنا ؛  
 إذا وافتنا ظروف الحياة بما بود ونهوى ، حسبنا أنفسنا بادية  
 الأمر سعداء هاتئين . لكن هذه السعادة لا تلبث أن تفتت وتفقد

ما كان لها من بهجة وطلاوة ، حتى نعود بعد قليل ، وما كان بالأمس يرضينا رضى تاماً ، لا يرضينا اليوم إلا رضى يسيراً ، يعقبه بعد ذلك رضى أقل ، وهكذا يذهب رضى النفس رويداً رويداً ويحل محله على مرور الزمان التبرم والضيق . . هذه هي الخاتمة المحتومة لكل سعادة إنسانية ، وهذا هو القانون القاهر الذى ليس لجميع الأحياء منه مفر ، فإيكاد الإنسان يدرك السعادة التى لج به الشوق إليها حتى يأخذه الفزع إذ يرى أنها ليست كافية ولا شافية ، وأنه لم يدرك منها ما منت وما وعدت ؛ ولربما كانت الحياة قد أعطت كل ما تستطيع أن تعطى ، غير أن الرغبة فى السعادة لم تخمد ولم تفتت ، ولن تقنع النفس الإنسانية ولو قبض لها أن تحظى بمسرات الحياة جميعاً ؛ حينئذ قد يحكم الإنسان بأن أهواء النفس شرك خادع ، وأن السعادة شبح زائل ، وأن الحياة نفسها خيبة وضلالة .

وهذا الشعور من شأنه أن يحمل الرجل المفكر المتروى على أن يرجع إلى نفسه متدبراً باحثاً متحيراً فى أمر مصيره .

\*\*\*

الإنسان فى وسط المدن قد يبدو وكأنما هو الشغل الشاغل للكون كله : إذ فى المدن يتلأأ نجمه ، ويطوكعبه ، وفيها يبرز كل

ما أوتى من سيادة ظاهرة ؛ ويلوح فيها كأنه المهيمن على مسرح الدنيا ، وكأن الله ما أبدع الكائنات ولا دبر هذا العالم العجيب إلا لخدمته وقضاء مصالحه دون سائر المخلوقات : من أجل هذا تملكه العزة والكبرياء ، وتحفزه ثورة الظفر ، ويأخذه الغرور .

ذلك شأن الإنسان في غمار المدن وفي ذلك المطرب الحافل .  
 ظاهر الحضارة الإنسانية وآثارها ، الزاخر بأفواج الناس من لداته ونظائره . لكن هذا الإنسان المتجبر المتصلف إذا اتفق له أن وجد نفسه ساعة وسط طبيعة شاسعة ؛ فرأى نفسه وحيداً تجاه السماء التي ليس لها من نهاية ، وحيال هذا الأفق الذي يمتد وينتشر إلى أقصى مرأى البصر ، والذي يجد من بعده وفيما وراءه آفاقاً أخرى نائية مترامية – أقول إذا وجد هذا الإنسان نفسه وسط معالم الطبيعة الرحبة ، وشاهد من جليل صنع البارئ ما يقصر عن إدراكه، فترامت له من أعلى الجبال، ومن تحت ضوء النجوم ، هنا وهناك ، قرى صغيرة مبعثرة ، تتضاءل فيما وراءها من غابات وآكام ، ورأى هاتيك الغابات والآجام هي أيضاً تضمحل وتفنى على امتداد البصر – عند ذلك يخطر في باله أن تلك القرى تسكنها خلائق ضعيفة مثله ؛ فإذا بدأ له أن يقيس هذه الخلائق بمعالم الطبيعة التي تحيط بهم، وأن يقيس هذه الطبيعة نفسها بعالمنا وهي منه

بمثابة القطرة من البحر المحيط ، ثم قارن بين هذا العالم وبين آلاف  
العوالم الأخرى السابحة في فضاء الكون وأجوائه ، والتي إذا  
قيس بها عالمنا لم يكن شيئاً مذكوراً - حين يقف المرء على هذا  
المشهد الرائع ، يشعر بأنه يدنو شيئاً فشيئاً من مطالع الأبدية ، ويمتلئ  
قلبه بجلال القدرة الإلهية ، ويتمثل ما في حال الإنسان من ضعف  
وصغر . وعندئذ يرنى لأهوائه المنكودة التي لا تخلو لحظة من  
شوائب وكدر ، ويترحم على هناءاته الباطلة التي تقضى وشيكاً  
إلى التبرم والضرر ؛ وحينئذ يسائل نفسه ، من هو؟ وما شأنه؟  
ومن أين جاء؟ وماذا يصنع في هذه الدنيا؟ وعندئذ يعنّ للإنسان  
أن يفكر في حظه ومصيره .

• • •

ولننظر لحظة في تاريخ الجنس البشري : شعوب تجمىء وتودى  
مهمتها في الوجود ، وسرعان ما تختفي وتظهر أمم غيرها فتمثل  
دورها على مسارح الأرض ثم تمضى كمن سبقها ، وهكذا قصة  
كل حين .

حين تفكر في هذا الليل الخالك الرهيب ، الذي تسير فيه  
الإنسانية متعثرة ، جاهلة منبتها وغايتها ؛ وحين نعم النظر في هذه  
الأمم التي تظهر على وجه الأرض في كل عهد ثم تمضى وليس

منها من يدري على التحقيق من أين جاء، ولا ماذا يصنع، ولا إلى أين يذهب؛ وحين ننظر في وجوه الاختلاف والتفاوت الذى يفرق بين الأقاليم أكثر مما تفرق بينهم المسافات والجبال والبحار، وحين تفكر فيما يساورهم من دهشة حين يلتقون، وما ينشب بينهم من خصومة حين يتعارفون، وعندما نتدبر أن هذا القضاء الغامض الذى ينتدبهم شعباً شعباً على مسرح الدنيا، وهذا القدر الغالب الذى يكتم سره عن الناس، والذى ما يكاد يجعل بعضهم يسودون فيها ردحاً من الزمن، حتى ينخى عليهم ويتركهم شذر مذر ويجعلهم أثراً بعد عين — حينئذ يستولى على النفس رهبة وخشوع، ويحس المرء عبء هذا المقدور المستور الذى ليس إلى النجاة منه سبيل.

فما هى هذه الإنسانية التى نحن شطرها وجزؤها؟ ومن أين جئنا؟ وإلى أين نمضى؟ أترى يكون شأنها شأن أعشاب الحقول تنبت من الأرض فى كل مكان، فى اليوم الذى عينته نواميس الكون العامة، ثم تعود إليها إذا جاء أجلها فلا تستقدم عنه ساعة ولا تستأخر؟ أم ترى أن الكون ليس إلا مسرحاً تمثل عليه الإنسانية فصلاً من روايتها السرمدية؟

لقد دانت مدينة الشرق لمدينة اليونان، ودانت مدينة اليونان

لمدينة الرومان ؛ ولقد برزت من غابات جرمانيا مدينة جديدة فقوضت مدينة الرومان ؛ وبرز من وراء المحيط عالم جديد يحمل مدينة جديدة . فما نصيب هذه المدينة الجديدة وما مصيرها ؟ ترى هل تبسط على الدنيا سلطانها ؟ أم أن من حظ جميع مدنيات الأرض أن تزدهر وترتفع ثم يندب إليها الضعف والاضمحلال ؟ وبعبارة أخرى ، هل الإنسانية تدور منذ الأزل في دائرة معينة ؟ أم تعدوها وتتقدم ؟ أم هي كما يزعم البعض تتأخر وتتقهقر ؟

إن الأمر يلتبس علينا ؛ وتساورنا الحيرة في هذه المسائل . يتساءل الإنسان ما هذا القانون الذي يتبعه قطعان البشر دون أن يعرفوه والذي يحملهم من أصل مجهول إلى غاية مجهولة ؟ وعلى هذا النحو يفكر الإنسان في مصير الإنسان .

ولا يظنّ القارىء أنه يلزم أن يكون الإنسان عالماً لكي يسمو عقله إلى تصور مشكلة مصيره : فإن الفلاح الساذج الذي يرعى الماشية هو أيضاً يواجه الطبيعة . وفي أوقات فراغه الطويلة قد يفكر متسائلاً من هو ؟ وما عسى أن تكون تلك المخلوقات الراقدة عند قدميه ؟ وللفلاح أيضاً أجداد هبطوا القبور واحداً بعد واحد ، فهو يتساءل : لماذا ولدوا ؟ وفيم عاشوا على الأرض حقبة من الزمان ، حتى إذا انقضت آجالهم ماتوا وأخلوا المكان

من بعدهم لآخرين هم بدورهم يخنفون ؟ أهكذا الحال أبد الدهر بلا سبب ولا غاية ؟ إن الفلاح يفكر مثلنا في هذه الشئون ؛ وهو يفكر كذلك في هذا الكون اللامتاهى الذى ليس هو منه سوى ذرة يسيرة ؛ وهو يشعر مثلنا أنه ضائع في خضم الكائنات التى لا يعرف لها مبدأ ولا نهاية .

وقد يخطر له أحياناً أن يبحث عن الصلة بينه وبين تلك البهائم التى يتولى رعيها . وقد يتساءل : كما أنه هو أشرف منها أليس ثمة مخلوقات أخرى أشرف منه وأرقى . وإذا يتمثل ما هو فيه من فقر وكذ وذل ، يسهل عليه أن يتصور خلائق أخرى أكمل منه وأعظم استعداداً للسعادة . وحينئذ يحسر فيوجه إلى الخالق سبحانه هذا هذا السؤال الصارخ الحزين ، ربى لم خلقتنى ؟ وما معنى المهمة التى أقوم بها فى هذه الدنيا ؟ .

إذا عرض للإنسان فى ظرف من ظروف حياته أن يردد هذا السؤال ، ثم لم يجد فيما رسخ من عقائده جواباً مقنعاً شافياً ، ساورته فى ذلك شكوى أليمة ولم يعصمه شيء من الكفر والجحود إلا أن تدركه رحمة من العلى القدير .



## الحرية عند اليونان والرومان

الجمع بين الحرية والديمقراطية - معنيان للحرية عند أرسطو  
- الحرية السياسية والحرية الداخلية - « الايقوريون »  
و « الرواقيون » - حرية النفس عند « إبيكتيتوس »  
و « صهرس أوريليوس » - مطالب العصر

إن فكرة الحرية عند اليونان متصلة اتصالاً مباشراً بفكرة الديمقراطية، أى بالحكومة التى تكون السيادة فيها للشعب. وقد قال أرسطو فى كتاب « السياسة » : ( الكتاب السابع ، للباب الأول ) « إن الأساس الذى يقوم عليه النظام الديمقراطى هو الحرية » . فما الذى يقصده مفكرو اليونان من الجمع بين معنى الديمقراطية والحرية؟

\* \* \*

فى زمن « هومير » (القرن الثامن قبل الميلاد) و«هزيود» (القرن السابع ق . م) لم يكن يحسب للفرد اليونانى حساب : تقرأ فى «الإلياذة» ، أن إبداء الآراء وإصدار الأحكام فى اجتماعات «الأجورا» ، كان مقصوراً على الملك ورؤساء العشائر . ونرى فى كتاب « الأعمال والأيام » ، فرقاً ظاهراً بين كبار ملاك الأراضى وبين جمهرة صغار الملاك . فلم يكن هنالك وقتئذ حرية حقيقية إلا لأصحاب الثراء . وفى القرن السابع بدأ يتكون من اليونانيين شعب مدنى ، أى مجتمع أقرب إلى الديمقراطية ، وذلك بفضل

التوسع الاستعماري وازدياد السكان في المدن والموانئ، وازدهار التجارة والصناعة .

وتم التغيير حوالي سنة ٦٠٠ ق . م ، إذا أتيح للشعب نفسه أن يصدر قانوناً دستورياً ، وأتيح للقضاة المختارين من الشعب أن يظفروا بالسيادة في إدارة حكومة المدينة ، وتألفت هيئة من الشعب تجتمع في جلسة علنية في التاسع من كل شهر ، لتدبر شؤون « الديموس » ( الشعب ) ، ولتحكم في جمع المنازعات والخصومات . وفي هذا العصر نفسه ( ٥٩٢ ق . م ) كانت قوانين « صولون » تكفل للأثنيين التمتع « بالحرية المدنية » : إذ حرمت القبض على العاجزين عن الوفاء بما عليهم من ديون . عندئذ أصبح أبناء الأثنيين جميعاً مواطنين أحراراً . وتم تطور هذا النظام على يد « بركليس » إذ أن تشريعاته ( التي أصدرت سنة ٤٥١ ق . م ) هيأت للمواطنين ، مهما كانوا فقراء ، أن يصلوا إلى أعلى مناصب الدولة .

وإذن فالجمع بين « الحرية » و « الديمقراطية » قد تضمن ميزتين : الأولى « الحرية المدنية » ، بمعنى أن كل عضو في المدينة من أبوين يونانيين يستطيع أن يعيش في أمان على شخصه وأمواله ، ما دام لا يخالف قوانين الدولة . والثانية « الحرية السياسية » ، بمعنى أن كل مواطن يستطيع أن يتولى جميع المناصب العامة ، سواء كانت ولايتها

بالانتخاب أو بالاقتراع . ويتميز هذا النظام عن النظام «الأولغرشى» ، أو النظام الأرسقراطى الذى لا يجعل السلطان إلا لطبقة معينة ، كما يتميز عن النظام الملوكى أو النظام الاستبدادى الذى لا يجعل السلطان إلا لرجل واحد تكون إرادته قانوناً . وبفضل الديمقراطية اليونانية تحرر اليونانى من أمور كثيرة : تحرر فى شخصه من قيود الرق ، سواء كان مكبلاً بها فعلاً أم كانت تهدده كما فى حالة الرق بسبب الديون ؛ وتحرر أيضاً ، باعتباره حيواناً سياسياً ، من استبداد السادة اليونانيين ، سواء أكانوا ملوكاً أم من أصحاب الأراضى . وهذا هو المعنى الأصلى للحرية عند اليونان (١) .

• • •

بعد أن ذكر أرسطو فى كتاب «السياسة» أن الحرية شيمة الديمقراطية ، وأن رأى الشائع فى أثينا أن هذا النظام هو الوحيد الذى يمنح الناس حظوظهم من الحرية ، قال : « للحرية معنيان : أحدهما أن يكون الإنسان محكوماً تارة وحاكماً تارة أخرى . لأن فكرة الشعب عن العدالة هى المساواة فى الحقوق للجميع من حيث العدد لا من حيث القيمة . وإذا كان هذا معنى

(١) راجع : Festugière, Liberté et Civilisation chez les Grecs, Paris 1948.

العدالة فالجمهور هو بالضرورة السيد الحاكم ؛ إذ أن قرار الأغلبية هو القانون النافذ آخر الأمر . والواقع أن هذه هي المهمة الخاصة للحرية ، إذا صح أن العبد لا يجبا على هواه . وإذن فهذه هي العلامة الثانية المميزة للديمقراطية والتي ولدت عند الإنسان كراهية السادة والرغبة في أن لا يكون له سيد على الإطلاق ؛ فإذا لم يكن ذلك يمكننا فليكن سيداً مرة ومحكوماً مرة أخرى . وعلى هذا النحو يميل المرء إلى تحقيق الحرية في المساواة بين الجميع . . (٢)

\* \* \*

فظاهر أن للديمقراطية في نظر اليونانيين ، وكما يعبر عنها أرسطو ميزتين : الأولى توزيع العدالة بين الجميع ، أو ما نسميه اليوم بالمساواة في الحقوق المدنية والسياسية . والثانية هي حرية كل واحد في أن يجبا كما يشاء .

والدليل على أن هذين المعنيين كانا راسخين في عقلية اليونانيين في القرن الخامس قبل الميلاد هو ما نجده في خطبة « بركليس » المشهورة في رثاء أبناء أثينا الذين ماتوا في السنة الأولى من حرب البلوبونيز ، . فقد استهل « بركليس » خطبته بالثناء على الأجداد الذين برعوا في الحرب والقتال ، فاستطاعوا أن يصونوا أرض

(٢) أرسطو : « السياسة » ، الكتاب السابع ، الباب الثاني .

الوطن ، ودأن يسلموه حراً وديعة إلى الأبناء والأحفاد . ثم مضى  
 ممتدحاً الديمقراطية فقال : « أن اسم دسورنا هو الديمقراطية :  
 لأنه دستور يهتم بالأغلبية لا بالأقلية ، ولأن جميع الأثينيين  
 متساوون في الحقوق والواجبات . أما المناصب العامة فكل واحد  
 يرشح لها وينالها ، لا بفضل انتباهه إلى حزب ما ، بل بفضل صفاته  
 وبميزاته الشخصية ، ولا يحول دونه شيء ما دام باستطاعته أن  
 يؤدي خدمة للدولة . . . . . إننا لا نغضب على أحد منا حين يصنع  
 ما يحلوه ويتصرف على الوجه الذي يريد . . . وعلى الرغم من  
 سهولتنا في معاملاتنا الخاصة نشعر في أنفسنا قبل كل شيء بخشية  
 القوانين واحترامها ، فتمنعنا تلك الخشية من مخالفتها في أعمالنا العامة  
 لأننا نطيع الحكام الذين يتقلدون مناصب القضاء واحداً بعد الآخر  
 كما نطيع القوانين ، ولا سيما القوانين التي ليست مكتوبة والتي تسم  
 من يجترحونها بميسم العار في نظر الناس جميعاً ، (٣) .

\* \* \*

هذا هو المثل الأعلى للديمقراطية وللحرية عند اليونانيين ؛  
 وليس من شك في أن هذه الحرية التي كان الأثينيون  
 يستمتعون بها هي التي حملتهم على الدفاع عن حرية وطنهم بكل

(٣) توكيدس : « تاريخ حرب البلوبونيز » : ٢ ص ٣٥ وما بعدها .

ما وسعهم من قوة : الدفاع عنها ضد الفرس في أوائل القرن الخامس قبل الميلاد ، وضد الأسبرطيين وحلفائهم في أواخر ذلك القرن نفسه .

ومن الأمور المشهورة عند مؤرخي ذلك العصر وشعرائه أن يوازنوا بين الفرس واليونانيين من هذه الجهة : فالفرس — في نظرهم — عبيد يقاتلون مأجورين ، أما اليونانيين فأحرار يقاتلون من أجل مثل أعلى للحياة ظفروا به بعد جهاد شاق ، وهم مؤمنون بأن هذا المثل وحده هو الكفيل بازدهار الشخصية الإنسانية وإكتمالها . نجد في رواية «الفرس» لإخيل ، أن أتوساً يسأل : « أين أثينا ؟ أهي مدينة كبيرة بلغت من قوة الجيش والمال حداً جعل «أجزرسييس» يرى وجوب القضاء عليها ؟ ومن هم أولئك الأثينيون ؟ وأي قائد يقودهم إلى الحرب ؟ ومن هو ذلك الطاغية الذي يتولى تصريف أمورهم مستبداً برأيه ؟ ، فيجيب الشيوخ : « إنهم لا يرون أنفسهم عبيداً لأي إنسان ، وليس لأحد عليهم من سلطان » (٤)

فالامر الذي يزهو به اليوناني هو أنه ليس عبداً لإنسان ، وإنما يطيع القانون ، لأن القانون هو المعبر عن إرادة الشعب ،

(٤) إخيل : «الفرس» : ٤٧٢ .

ولأن الشعب هو كل مواطن يوناني ، والمواطن هو الذي أعد القانون وهو الذي سنه في الجمعية العامة ، وهو الذي طبقه في مختلف المحاكم بالمدينة . واليوناني حين يذود عن حرية وطنه إنما يذود عن حرته الشخصية ، الحريتان لا تفرقان بل هما شيء واحد .

\* \* \*

وإذن فأصل معنى الحرية عند اليونان هو الحرية السياسية . ولكن هذا المعنى من معاني الحرية قد انتقل انتقالاً طبيعياً إلى الحرية في الفكر وفي السلام وفي العمل وفي السلوك . وكان طبيعياً أيضاً أن يكون له أثر كبير في فكرة « الإنسان ، نفسه ، وفي ازدهار شخصه ، وفي فكرة « الحكمة ، بكل ما تضمنته عند القدماء من كرامة واستقلال .

وقد أوضح « جوهر برنس ، هذا الأمر فقال : « إن استتباب الديمقراطية قد كفل لكل مواطن أن يشعر بحرية جديدة كانت وقفاً على الأشراف من قبل . وساقه هذا الشعور بالحرية إلى كثير من عواطف « النبل ، ومكارم الأخلاق . كان اليوناني يرى لنفسه ، باعتبارها حراً ، منزلةً فوق منزلة العبيد وحالاً تباين حالهم . وكان يرى أنه بهذا الاعتبار رجل مستقل عن الحظوظ والأقدار ، قليل الاكثارات بالخاوف والآمال . إنه يستطيع أن يستمع بما يملك

وهو آمن مطمئن ، وليس لأحد سوى الآلهة سلطان عليه . . .  
وعندئذ أصبح يرى في التوكل على الأقدار أو التكالب على المصالح  
المادية دليلاً على الحسة والهوان ، ويرى احتقار المال والعزوف  
عن التجارة آية على النفوس الحرة الكريمة . فلما أشاد الفلاسفة  
بهذا النموذج من الإنسان الحر ، وعدوه مثلاً أعلى للإنسان في كل  
زمان ومكان ، انبثق في الأخلاق اليونانية مثال الحرية الداخلية .  
فن وافق مطالب هذا المثال كان إنساناً حراً ، ولو كان عبداً يُباع  
في الأسواق ، ومن خالفه كان عبداً ، ولو كان ملكاً يجلس  
على العرش .

\* \* \*

وهذا النزوع إلى الحرية الداخلية ، قد وافق ضياع استقلال  
المدن اليونانية سنة ٣٣٨ ق . م ، وتبعيتها لملك مقدونيا ، فاضطرت  
الحرية إلى أن تلوذ بحمي النفس الإنسانية ، حيث لا تستطيع أن  
تمتد إليها يد الطغاة والمغتصبين : إن اليونانيين قوم تكاد الحياة  
السياسية عندهم أن تطفئ على كل شيء ، ولكنهم الآن قد سئموا  
الجمود السياسي بعد ضياع استقلالهم ؛ وهم يريدون أن يتلهاوا عن  
التفكير في محنتهم ؛ ولكن الآداب والفنون لا تكفي لبد أوقات  
الفراغ في حياتهم ، فكان طبيعياً أن تصبح الفلسفة حينئذ هي الملاذ  
الوحيد للجمع الأثيني . والفلسفة بدورها قد عنيت بالحياة



العملية ، فأرادت أن تكفل الإنسان ملاذاً في الضراء وحين  
البأس . ونظر اليوناني فوجد على المسرح الفلسفي مدرستين  
كبيرتين متنافستين في اجتذاب الجماهير : إحداهما مدرسة « الحديقة »  
وقد أنشأها « إبيقور » سنة ٣٠٦ ق . م ، والثانية مدرسة « الرواق »  
وقد أنشأها « زينون » سنة ٣٠١ ق . م .

أما مدرسة « إبيقور » فهي البيئة الجديدة التي يحس الإنسان  
أنها داره التي يأوى إليها ، هي أسرة « الأصدقاء » . وليست الصداقة  
إلا بيقورية هي الشارة الخارجية التي تربط التلاميذ بالأستاذ  
فحسب ، بل هي الأساس الذي تقوم عليه الحكمة (٥) . وتتلخص  
الدعوة لإبيقورية في وجوب سعى الإنسان إلى الخلو من  
الاضطراب النفسى . ولكن المرء لا يستطيع أن يبلغ هذه الغاية  
إلا بمنصرة جماعة « الأصدقاء » ومشاركتهم إياه في السراء والضراء  
والمثل الأعلى للحرية كما دعا إليه « إبيقور » هو أن يخلو قلب  
الإنسان من كل رغبة أو رهبة ، وأن تبرأ نفسه من الخرافات  
والأوهام .

وأما فلاسفة « الرواقية » فقد أرادوا إحلال « الإنسان »  
محل المواطن ، وجعلوا « الحكيم » مواطناً للكون كله ، ومالوا

(٥) راجع : فستوجير : « إبيقور وآلهته » ، باريس ١٩٤٦ - الفصل الثالث

إلى اعتبار الإنسانية أسرة واحدة أعضاؤها أفراد البشر عامة ،  
 أيا كانت نحلهم وألسنتهم وبلادهم . فالناس جميعاً طبيعتهم واحدة  
 وأصلهم واحد ، وهم من جهة عقولهم يشتركون في نظام واحد ،  
 وينتسبون إلى إله واحد ، ويؤلفون دولة واحدة ، حدودها  
 الكون كله ، ورئيسها الله ، وقوانينها قوانين الطبيعة . وكلها استرشد  
 الإنسان في حياته بهذه القوانين العقلية الطبيعية التي يقر بضرورتها  
 ويعمل على استنباطها أصبح رجلاً حراً بأكمل معاني الحرية (٦).

\* \* \*

وإذن فنحن نرى أن حكماء أثينا قد استطاعوا في أزمان الشدة  
 والبلاء أن يقدموا للعالم نظرة جديدة عن الحرية . وهذه النظرة  
 نفسها هي التي سيقدمها حكماء رومة ، والرواقيون منهم على  
 الخصوص ، ولكن مع شيء من التحوير .  
 وفكرة الحرية هي الفكرة الإكبري التي تسود فلسفة  
 « أبكتيتوس ، الرواقي الروماني (القرن الأول بعد الميلاد) . والحرية  
 عنده هي أن يتصرف الإنسان في أفكاره وإرادته بحيث لا يمكن  
 قهره على غير ما يريد . وإذن فهي حرية النفس التي تعرف كيف

(٦) عثمان أمين : « الفلسفة الرواقية » ، القاهرة ١٩٤٥ ص ١٥٧ وما بعدها

تحكم نفسها وفق قانون تسنه لنفسها . وإذا أراد الإنسان أن يعرف تلك الحرية وجب عليه ، وفقاً للبدأ السقراطي المشهور ، أن يعرف نفسه . عندئذ يتبين أولاً أنه مستعد لأشياء كثيرة : فهو عبد لبدنه ، عبد للمال ، عبد للجاه والسلطان . فاذا التمس المرء الحرية الصحيحة فليبحث عنها لا في الأشياء الخارجية ، ولا في جسده ، ولا في ماله ولا في جاهه ، لأن في ذلك كله رقاً أخلاقياً وبلاءً عظيماً ، بل إنه واجدها في نفسه وفي أمر مطلق مستقل ، وهو قدرته على الحكم والإرادة . ولا شيء من الخارج يستطيع أن ينال حرية النفس بسوء : « سأل الفيلسوف تليذه : أهنا لك شيء هو ملك لك ؟ قال التليذ ؛ لا أدري ، فقال الفيلسوف : أيستطيع أحد أن يكرهك على تصديق ما ليس بصدق ؟ قال : لا . فقال : أيستطيع أحد أن يكرهك على إرادة ما لا تريد ؟ قال : يستطيع ذلك إذا هددني بالموت أو بالحبس ؛ فقال الفيلسوف : إذا لم تبال أنت بالموت أو بالحبس ، أيستطيع إكراهك بمثل ذلك الوعيد ؟ قال : لا . قال : أو ليس في قدرتك أن تحتقر الموت ؟ قال : بلى . قال : فأنت حر حينئذ . . . » . فحرية النفس عند « أبىكتيتوس » ، تفلت من سلطان الناس وسلطان الأشياء بل إنها عنده تفلت من سلطان الله نفسه : فان الله الذي منحنا الحرية يستحيل عليه أن يسلبنا إياها ، لأن المنحة

الإلهية لانسترد كالمنح البشرية . وإذن ففي الحرية يجد الإنسان  
مستنده الذى يطمئن إليه (٧)

\* \* \*

أما الامبراطور الرومانى «مرقس أوريليوس» (١٢١- ب.م) فقد دعا إلى فكرة الاستقلال . قال : إن خير كل موجود وغايته هو أن يودى العمل الذى خلق له . والإنسان إنما خلق بطبيعته عاقلا . فحسبه إذن — لكى يصيب خيره ويبلغ غايته — أن يحقق استقلاله النفسى مهما كلفه ذلك . واجب عليه أن يصون ذلك الاستقلال سواء كان يزاء غيره من الناس أم يزاء الآراء التى منشأها الخيال أو الأهواء أو الانفعالات أو الرغبات أو المخاوف فإذا بلغ الإنسان ذلك الاستقلال المنشود عاش حراً غير مقيد ، وعاش من نفسه فى حصن حصين ، فلا يمسه مكروه ولا يستطيع أحد أن يلحق به ضرا . ولقد أصر مرقس أوريليوس على الأخذ بما دعا إليه الرواقيون من التفرقة بين الأشياء التى فى قدرتنا ، والأشياء التى ليست فى قدرتنا : فكل ما هو مغاير لنا وخارج عنا ليس فى مقدورنا ، والذى فى مقدورنا هو ملكات نفوسنا ، وعلى الخصوص قدرتنا النفسية على تصديق الأفكار التى نحكم بيداها ،

(٧) راجع : أبكتيتوس : « المحادثات » ، الكتاب الرابع ، الفصل الأول

وقدرتها على الرفض والتوقف عن الحكم . . . فإذا قيل إن قدرة الإنسان محدودة، وإن كثير أمن المصاعب تعترض طريقه، فالجواب أن هذا هو السبب في أن الحكيم لا يريد شيئاً قط إلا ، بتحفظ ، أى على شرط أن يكون الشيء المطلوب قريب المنال : فإذا كان صعب المنال ، فالرجل الذى يكون قد تحفظ في طلبه لا يشعر من جراء فشله في بلوغه بأى ألم أو خيبة ظن ، لأنه كان يقدر وقوع الفشل من قبل ، وبهذه المثابة لا يعده فشلاً (٨)

وإذن فالحرية الداخلية عبارة عن أن نغير رغباتنا ، وأن نرفعها من المستوى الفردى إلى مستوى الكون . فأنا إذا وافقت الكون أصبحت حراً فى أن أعمل كما أشاء ، واستمتع بحرية تامة . ونتائج عملي ، سواء كانت موفقه أو غير موفقه ، لاتهمنى إطلاقاً . وما يهمنى إلا الصورة التى أضفيها على الفعل ، وهذه الصورة ممتازة : كل شيء حسن ما دام يتم وفقاً لقانون الكون الذى هو حسن . وما على إلا أن أتابع قانون الكون ، عندئذ يبدو لى كل ما يصيبني شيئاً حسناً .

\* \* \*

كان من شأن الحوادث الكبرى التى وقعت فى بلاد اليونان

(٨) مرقس أوريليوس : « حواطر » الكتاب الثالث ، ف ٩

في عهد « فيليب » و « الاسكندر » ، أن جردت الأخلاق اليونانية من طابعها القومي المؤلف عند أرسطو وأفلاطون ؛ فلم يُعد للواطن « اليوناني » وجود : سقط القناع اليوناني القديم ، ولم يبق سوى « الإنسان » . فأرادت الفلسفة أن تعلمه الفضيلة وأن ترشده إلى السعادة : فكان سبيلها أن تصرفه عن كل شيء ، حتى عن الوطن . ومن أجل هذا وجدنا الطابع العام للذاهب الفلسفية في « العصر الهليني » هو عدم الاكتراث بالأمور السياسية : فذاهب « ديوجانس » و « أرسطيبوس » و « بيرون » و « قرنيادس » و « إبيقور » و « وزينون » - على ما بينهما من اختلاف - إنما هي صور متنوعة لسعي الإنسان إلى الانطواء على النفس ، والانصراف عن الأشياء الخارجية والمظاهر الخداعة التي تحول بينه وبين تكميل نفسه وإسعادها . لقد كانت « أثينا » من قبل زعيمة الحرية : حرية الفرد في المدينة ، وحرية المدينة في بلاد اليونان . فلما انحلت المعتقدات القديمة ، وهوت الحرية السياسية ، ووهنت الفضائل الأخلاقية ، لم يبق أمام النفس الإنسانية إلا أن تنكش على ذاتها ، حتى تصادف عقائد جديد تشعل فيها نار الحب والأمل <sup>(٩)</sup> .

ولم يبق أمام فلاسفة أثينا إلا أن ينهضوا بعبء هذه المهمة ،

Gilbert Murray, « Stoic, Christian and Humanist » (٩)  
1946, p. 92

فقاموا يبيّنون للناس أن « الحكيم » يظل حراً إذا عرف كيف يستكفي بنفسه ، وكيف يحيا على وفاق مع نظام العالم .

\* \* \*

لقد كان « إبيقور » رجلاً مريضاً ، وكان « كلينثس » الرواقى سقّاءً يشتغل ليلاً في خدمة خبّاز ، وكان « ابكتيتوس » الرواقى عبداً . وكان العصر الذي عاش فيه « إبيقور » و « زينون » عصر مجاعة وموت ، قد تقلبت فيه على أثينا أحداث كثيرة : ثارت أثينا ثلاث مرات ( وانتهت ثوراتها بإراقة الدماء ) ، وقاومت الحصار خمس مرات ، واستولى عليها الأعداء ثلاث مرات . . . . . وفي الحق لقد كان ذلك العصر أحد تلك العصور التي يستولى فيها على الإنسان شعور بسخف الحياة وتفاهة قدرها . ولأول مرة حينئذ ظهرت فكرة « السخف » (١٠) في فلسفة الحياة تحت اسم « الحظ » و « البخت » و « القسمة » !

وإذن فهاتان الفلسفتان الأخلاقيتان اللتان ظهرتتا في أوقات الشدة والبلاء قد جاءتا ملائمتين لبؤس الإنسان الحديث الذي بدأ هو أيضا في الظهور حينذاك ، ذلك الإنسان الحائر الضائع في جمهرة الناس ، والذي هو أشبه برقم من أرقام الحساب وسط عدد

(١٠) وهي الفكرة التي عادت الى الظهور في أيامنا هذه عند « الوجوديين ».

لا يحصى من المخلوقات البشرية التي هي على شاكلته والتي لا تعرف عنه شيئاً كما لا يعرف هو عنها شيئاً ، ذلك الإنسان الذي يحمل وحده عبء الحياة ويعيش بلا صديق ، ويسير بلا مأرب ولا سبب من أسباب الوجود ، ويدور على نفسه كالبهيمة إلى أن يموت . . . (١١)

إلى هذا الإنسان القلق المضطرب قدم « إبيقور » و « زينون » وأنصارهما من بعدها هدايةً إلى طريق جديد لمباهج حياة سعيدة لم تستنفد بعد فضائلها حتى في أيامنا هذه : أرشدها إلى سكينة النفس التي لا تساورها رغبة أو رهبة : وعلّمها كيف يسلك سبيل « الحكمة » الإنسانية ليصل إلى الحرية الداخلية وهي الحرية الحقيقية .

(١١) فستوجيير : « الحرية والمدنية عند اليونان » ، باريس سنة ١٩٤٨



# حول تاريخ الفلسفة الأوربية

## في العصر الوسيط

خصائص « العصر الوسيط » في أوروبا - سيطرة  
اللاهوت - أوغسطين - الأفلاطونية - المشكلة  
« المدرسية » : التوفيق بين العقائد المسيحية والفلسفة  
اليونانية - كتاب الأستاذ يوسف كرم - ميزات الكتاب  
ملاحظات من حيث الشكل - ميزات الفكر المدرسي

يطلق اسم « العصر الوسيط » على حقبة طويلة من الزمان ،  
تمتد على وجه التقريب من القرن السادس الميلادي إلى عهد  
« الإصلاح » ، الدينى المسيحى ، وأظهر خصائص هذا العصر على  
العموم أن علماء الدين ورجال الكنيسة كانوا هم القائمين فى البلاد  
الأوربية على شؤون التعليم الفلسفى . ففي إبان القرن السادس  
والسابع والثامن كانت الكنيسة المسيحية هى الرسول الوحيد  
لنقل كل ما بقى من تراث العصر « الكلاسيكى » القديم ، وكان ينظر  
إليها على أنها المخلص الوحيد للإنسانية ، لا من نار جهنم فحسب ،  
بل من البهيمية والهمجية أيضاً . وكان إدراك هذا الأمر ، على  
ما فيه من إبهام وقصور ، هو الذى أضفى على عقلية العصور  
الوسطى وحدتها ووسمها بالطابع المميز لها .  
كان فكر القرون الوسطى فى صميمه يرد كل شىء إلى الله ،

وكان جميع الكبار من مفكرى تلك العصور لاهوتيين ، حتى ليصح القول بأن « عصر النهضة ، الأوربية إنما بدأ حين اختفت هذه الظاهرة الدينية العامة ، وازدادت المعرفة بآثار القدماء من العرب واليونان . فمن القرن التاسع إلى القرن الثاني عشر كان العلم بآثار أفلاطون وأرسطو ضئيلاً إلى حد يدعو إلى الدهشة ، إذ لم يبق من كتب أفلاطون إلا كتاب « طيماوس ، الذى ترجمه « خلقيدوس ، إلى اللاتينية ؛ ولا من كتب أرسطو إلا كتاب « المقولات ، وكتاب « الشرح ، ؛ ولم تكن مضامين كتب أرسطو الأساسية معروفة بوجه عام إلا فى بداية القرن الثالث عشر ، وإن كانت كتبه فى المنطق قد كشفت كلها مرة أخرى قبل نهاية القرن الثانى عشر . وكان يسود الفترة الأولى من العصور الوسطى مؤلفات القديس « أوغسطين ، الذى استطاع ، أكثر من أى واحد آخر من « الآباء ، اللاتينيين ، أن يدخل فى تعاليمه الروح الفلسفى عند الأفلاطونيين المتأخرين ، والذى استمر يؤثر أعمق التأثير وأبقاه فى عقلية العصور الوسطى ، حتى حين بلغت سلطة أرسطو ذروتها . وقد كان لاهوت الكنيسة فى « عصور الآباء ، مشعباً بالأفلاطونية ، وظل إلى النهاية أقرب إلى المذهب الأفلاطونى منه إلى المذهب الأرسطوطالى .

وإذن فقد كانت مهمة المفكر في العصور الوسطى مهمة توفيق وتركيب أكثر من أن تكون مهمة خلق وإبداع ؛ فقد كان الناس يحيطون الكلمة المكتوبة بهالة من التبجيل . وكانوا يؤمنون إيماناً تقليدياً خفياً بأن النصوص المقدسة كلها صحيحة بحروفها ، سواء ماورد منها في الأناجيل أم فيما كتبه الآباء وشيوخ الكنيسة . وقد سرى مثل هذا الإجلال أيضاً إلى غير الكتب الدينية من آثار الماضي التليد .

وإذن فقد كانت المشكلة « المدرسية » ، هي التوفيق بين الوحي الذي تقول به الكنيسة ، والنظر الفلسفي الذي تلاثاً في سماء اليونان القديمة . وقد غلب الإيمان بإمكان هذا التوفيق : لأن الإنسان ، وهو الحيوان الناطق ، إنما خلق على صورة خلق الله ؛ لكن العقل البشري قد فسد بخطيئة آدم ؛ فإذا وقع بين العقل وظاهر الوحي تعارض وجب على العقل أن يبادر بالإذعان والتزول عن حقوقه . فإن أبي واستكبر وأراد أن يبيح ، كان مقترفاً أخش الكبائر وأخبث الشناعات ، وكان عمله هذا مرادفاً لإنكار معقولية الكون على الإطلاق ، لأن العقل والوحي يلتقيان عند مصدر واحد فريد ، وهو طبيعة الله التي هي سر من « الأسرار » التي لا يسبر لها غور . ومن أجل هذا رأوا أن الإخفاق في الوصول إلى الجمع بين الفلسفة والدين إنما يرجع إلى فساد العقل البشري ، الذي لا يحفظ عليه

سلامته إلاّ نعمة الإيمان . والخلاصة أن تاريخ الفكر في العصور الوسطى عبارة عن الكشف عن المحاولات المتعاقبة للتوفيق بين العقائد المسيحية والفلسفة الأفلاطونية أولاً ، والتوفيق بين تلك العقائد والفلسفة الأرسطوطالية أخيراً .

• • •

وهذا هو ما بسطه الأستاذ يوسف كرم ، ببيان جلي على إيجازه ، في كتابه الجميل « تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط، (١) الذي تقدمه إلى قراء العربية جد مغتبطين .

يقع الكتاب في أربعة أبواب : الباب الأول في « أساتذة العصر الوسيط » ؛ ويبحث في أوائل نقلة الفلسفة اليونانية إلى اللاتينية ، وفي القديس أوغسطين وديونيسيوس وبويس .

والباب الثاني في « تكوين الفلسفة المدرسية » ، ويبحث في تنظيم التعليم ، ويبسط مذهب « جون سكوت أريجيننا » وطائفة من اللاهوتيين والفلاسفة أشهرهم بيرنجي دي تور ، والقديس أنسلم ، وبيير أبيلار ، وألان دي ليل . والباب الثالث في « أوج الفلسفة المدرسية » ، ويبحث في نشأة الجامعات ، وفي مذاهب بعض الفلاسفة المدرسين مثل جيوم « أوفرنى » ، وألكسندر أوف هاليس ،

(١) نشرته دار الكاتب المصري ، القاهرة سنة ١٩٤٦

والقديس بونا فتورا ، وروجريكون ، والقديس ألبرت الأكبر ، والقديس توما الأكويني ، وسيجر دي برابان ، وريمون لول . والباب الرابع في « انحلال الفلسفة المدرسية » ، يبحث في ايكارت ، وجون دونس سكوت ، ووليم أوف أوكام ، والإسمين الباريسيين مثل جان دي ميركور وجان بوريدان وألير دي ساكس . ويختتم الكتاب ببيان للمراجع وقاموس للأعلام .



إن أبواب الكتاب ، بما يندرج تحتها من فصول وأعداد وفقرات ، كلها قيمة نافعة ضرورية للوقوف على الفلسفة المدرسية في نشوئها وازدهارها وانحلالها . ويجري الكتاب على نسق علمي دقيق محبوب ، وينطق بلفظ عربي مبين ، تسرى فيه البلاغة حيناً ويبلغ حد الإعجاز أحياناً ، وظاهر أن كتاباً كهذا لم يكتب على عجل ، وإنما « صنعه » صاحبه بفكره ويده كما يصنع الفنان الذي يعشق فنه تحفة رائعة ؛ فجاء هذا العمل ثمرة طيبة للتوفر على الدرس والتمحيص وآية شاهدة على طول الروية والأناة ؛ وظاهر أيضاً أن المؤلف لم يدفع بكتابه إلى المطبعة إلا بعد مراجعة وصقل واستيعاب ؛ وهذه شرائط الإتيان والسعي إلى الكمال بقدر الإمكان ؛ وتلك خصال العلماء المحققين الذين يعكفون على بحوثهم

سنوات ، لا يحسبون حساباً « للموضة ، أو للشهرة أو للسوق . . .  
فترجو أن يكون ظهور هذا الكتاب ، وهو في هذه المرتبة من  
الإجادة ، درساً بليغاً للمستعجلين من الكتاب والمؤلفين .

\*\*\*

وبعد فإننا نود أن نقدم إلى المؤلف الفاضل بعض الملاحظات  
التي قد ينتفع بها في الطبعة الثانية من الكتاب .

يذكر المؤلف (ص ٩٧) من نقلة الكتب العربية إلى اللغة  
اللاتينية في القرن الثاني عشر المترجم الإيطالي «جيرار دى  
كريمونا» ، ويذكر أنه قد ترجم إلى اللاتينية شرح الفارابى على  
السمع الطبيعي لأرسطو ؛ ونحب أن نضيف إلى ما ذكر أن دى  
كريمونا قد ترجم من كتب الفارابى كتاب «إحصاء العلوم» كله ،  
وأن هذه الترجمة الكاملة موجودة محفوظة بالمكتبة الأهلية  
بباريس تحت رقم ٩٣٣٥ ، وقد نشرها المستشرق الأسباني  
«بلانسيا» Palencia في طبعته للنص العربى الموجود بمكتبة  
الاسكوريال ، وذلك ضمن « منشورات كلية الآداب والفلسفة  
بجامعة مدريد » سنة ١٩٣٢ .

ونلاحظ أيضاً أن المؤلف قد أورد في مقدمة كتابه بعض  
المآخذ أو « المثالب » التي وجهت إلى الفلسفة المدرسية المسيحية

ثم شرع في الرد عليها ؛ ونحن نخالف الأستاذ في هذه الطريقة ، ونرى أن ما ذكره بهذا الصدد كان أحرى أن يوجه إلى ما بعد الفراغ من عرض الفلسفة المدرسية جملةً وتفصيلاً ؛ فإدام حضرته قد نصب نفسه للدفاع عن الفلسفة المدرسية - وله الحق في أن يصنع هذا ، بل إنه مندوب إليه - فقد كان ينبغي أن يسلك الطريق الطبيعي الذي يسلكه كل محام عن قضية : يعمد أولاً إلى بسط الدعوى وبيان ظروفها وملاساتها ؛ ثم يتولى الدفاع عن وجهة نظره مع تنفيذ دعوى الخصوم ، وعندئذ يستطيع القارىء الذى يكون قد أحاط بجملة الفلسفة المدرسية ، وكون له فيها رأياً ، أن يتابع المؤلف في دعواه ، وأن يتبين بنفسه مدى ما في دفاعه من إقناع . أما ما صنع الأستاذ كرم في كتابه من البدء مباشرة بالدفاع ، قبل بسط القضية ، فأمر ينطوى في نظرنا على نوع من الدور ، لأنه يفترض أن القارىء عارف من قبل بما هيته الفلسفة المدرسية ، واقف على جهود رجالها ومذاهبهم فيها ؛ مع أن الكتاب لم يكتب إلا للتعريف بهذا الذى يُفترض من ناحية أخرى أنه معروف !

\*\*\*

ولست أعنى من إيراد هذه الملاحظة أن يفهم القارىء أن

الخلاف بين المؤلف وبينى يتناول جوهر الموضوع . ولا أن  
 يظن أنني أقر أقوال من وصفوا الفلسفة المدرسية المسيحية بأنها  
 « حقبة مظلمة مقفلة على نفسها ، بل الواقع أن الخلاف بيننا هنا  
 إنما ينصب على الشكل فحسب ، وأعتقد أن للفكر المدرسى على  
 العموم ميزات ليس من الإنصاف إغفالها .

صحيح أن ذلك الفكر كان دينياً في صميمه ، وكانت الفلسفة  
 فيه خاضعة للاهوت ، ولا استقلال لها عنه ، بل أنها استخدمت  
 « لفهم الإيمان ، كما كانوا يقولون . وصحيح أن الفكر الأوربي  
 في العصر الوسيط كان فقيراً في المعلومات الواقعية النافعة ، وكان  
 يعوزه روح العلم الحديث ، كما كانت تعوزه المناهج الصحيحة للبحث  
 العلمى كما نفهمه اليوم ، أعنى ذلك البحث القائم على الاستنباط  
 والاستقراء والتجربة ، دون تأثر بأى اعتبار آخر خارج عن  
 موضوع النظر .

لكنى أرى أن هذه الحقائق التى لا تنكر لا ينبغي أن تحملنا  
 على أن نعمط عليها العصور الوسطى حقهم من التقدير . وخلق بنا  
 أن لا ننسى ما شاركوا فيه من جهود لتقدم العقل الإنسانى .  
 ويبدو لنا أنهم حققوا ذلك من عدة وجوه : الوجه الأول أن  
 المنهج الذى جروا عليه فى النظر العقلى وفى الاستدلال -



على الرغم مما كان فيه من جفاف وآلية - قد استطاع أن يكسب الفكر نفاذاً ودقةً وحبذاً في التمييز والتقسيم والتفريع والمحاكاة وما إلى ذلك من صفات يندر وجودها في ذهنية العصور الحديثة . والوجه الثاني أنهم استطاعوا بتأملاتهم أن يتعمقوا مسألة من المسائل الفلسفية الكبرى ، وهي مسألة النفس والجسم . والحق أنهم قطعوا في درس هذه المسألة أشواطاً لم يبلغها القدماء من قبل ، وبينوا أن عالم الروح حق لا ريب فيه ، وأنه مهما يكن أمر الصلة بين الروح والبدن فإن الروح لا تقل عن المادة ثبوتاً وأصالة .

ومن الإنصاف أن نسجل لعلماء العصور الوسطى فضلاً آخر لا يستهان به ؛ ذلك أنهم جعلوا للحياة الباطنة منزلة رفيعة تفوق ما كان لها عند مفكرى القدماء ، وليس من الإسراف أن يقال بهذا الصدد إن الآثار التي خلفها الصوفية في مواجيدهم ومشاهداتهم ومكاشفاتهم كان لها من عمق الأثر في تربية « الذوق البسيكولوجى » مثل ما كان للتمييز والتقسيم والتفريع من الأثر في تقوية « الذوق المنطقى » عند المناطقة والجدليين من أهل القرون الوسطى .

\*\*\*

وبعد فإن أسرة الفلسفة في مصر والشرق العربى لتغبط أعظم اغتباط بظهور كتاب « تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط »

ذلك الكتاب الذى انسم ، كسائر ما كتب المؤلف ، بسمات الجدد والعمق ، والجمع بين الدقة والطلاوة والرصانة والوضوح ؛ وأود أن أختتم هذا العرض السريع بأن أعلن عظيم إعجابى بما يبذل الأستاذ المؤلف من جهود صادقة لخدمة الفلسفة فى البلاد العربية خدمات صالحة باقية ، وأود أن أتتهز هذه الفرصة لأقدم إليه خالص التهنية على ما وفق إليه من هذا العمل الدائب الباهر الذى أرى فيه فتحاً مبيناً فى الأدب الفلسفى العربى الحديث .

---

# الفلسفة والدين

## عند فلاسفة الإسلام

التوفيق بين الفلسفة والدين : الفيلسوف والنبي - الفارابي  
- ابن سينا - حجة الغزالي ظالملة - ابن طفيل - نظرية  
ابن رشد - نظرة الإسلاميين الى الصلة بين الفلسفة والدين

---

يقول «موريس فولف» في معرض الكلام عن فلاسفة العرب  
«إن التوفيق بين الفكر الفلسفي وبين العقيدة الإسلامية كان من  
أكبر ما انصرفت إليه عناية فلاسفة العرب . غير أن أغلبهم يفرق  
بين دين المستنيرين المبني على دراسة فلسفية ، وبين دين الدهماء  
القائم على تأويل القرآن تأيلاً حرفياً . ويتصل بهذه العناية  
المنافشات التي ثارت بين المتكلمين من أهل السنة ، وبين غير  
واحدة من الطرق المارقة التي لا يسمح المقام بتقصي تاريخها . . .  
وكارادوفو وغيره يطلقون « المدرسية الإسلامية »  
(Scolastique musulmane) على تلك المحاولة التي تبغى التوفيق  
بين القرآن والفلسفة . ومع ذلك فلا ينبغي أن يغرب عن البال  
أن فلاسفة العرب نحوا في تفسير العالم منحى قائماً بذاته مستقلاً  
عن خضوعهم للقرآن ،<sup>(١)</sup>

---

(١) موريس فولف: « تاريخ فلسفة القرون الوسطى » ج ١ ص ٢٠٩

ونحن إذا تقصينا آراء فلاسفة الإسلام واحداً واحداً في هذا الصدد، أعني بصدد الفلسفة والدين، لوجدنا مقالة « فواف، تشبه أن تكون صادقة منطبقة على الواقع في مجموعها : فقد كان فلاسفة الإسلام مسلمين مؤمنين مخلصين حقاً لدينهم يعتقدون اعتقاداً يقينياً كما يقول المستشرق « تيمان، أن الإسلام هو أكمل وحى إلهي، غير أنهم إذا كانوا قد حاولوا التوفيق بين مذاهب الفلسفة التي يحبونها، ويقفون عليها حياتهم، وبين عقائد الإسلام الذي يؤمنون به ويقدمونه، فلم يكن مرجع ذلك إلى أنهم نصبوا أنفسهم حماة للدين — كما يقول ذلك المستشرق — بل إسكى يدرأوا عن أنفسهم شبه الأشعرية وغير الأشعرية ممن كانوا يرمونهم بالزندقة والمروق، لاشتغالهم بالفلسفة وعلوم الأوائل . وحسبنا، لكي ندرك هذا الأمر أن نورد بيتين من الشعر قبلا يوم حكم على الفيلسوف ابن رشد بالنفي من بلاده واضطهاد أنصاره :

نقد القضاء بأخذ كل مضلل      متفلسف في دينه متزندق  
بالمناطق اشتغلوا فليل حقيقة      إن البلاء موكل بالمناطق

\*\*\*

لقد كان أولئك الفلاسفة يرون للفلسفة مكانها وللدين مكانه، كل منهما يؤدي وظيفته في الحياة من غير أن يكون بينهما مصادمة

ولانزاع : فالفيلسوف يصل عن طريق العقل إلى إدراك الأمور النظرية ، وهو يلم بطرف من الحقائق العملية . مهمته إذن نظرية : البحث في العقائد والنظر في الحقائق العقلية .

أما النبي فهو يدرك من سبيل الوحي الحقائق العملية ، وطرفاً من الحقائق النظرية : وهو يرى ، في حالة إشراق ، النظام الأكمل للكون فيحاول أن يهدى الناس إليه . فوظيفته إذن عملية تشريعية أكثر من أن تكون نظرية . كانوا يرون أن مهمة النبي هي تحقيق العدل في هذا العالم ؛ ومهمة الفيلسوف هي التشبه بالله في كمال المعرفة . ويهذا المعنى يقول الفارابي : « وأما الغاية التي يقصد إليها في تعلم الفلسفة فهي معرفة الخالق تعالى وأنه واحد غير متحرك ، وأنه العلة الفاعلة لجميع الأشياء ، وأنه المرتب لهذا العالم بوجوده وحكمته وعدله .. وأما الأعمال التي يعملها الفيلسوف فهي التشبه بالخالق بمقدار طاقة الإنسان ، (٢)

والفارابي لا يرى بين الفلسفة والدين تعارضاً ولا منافرة . وإذا كان قد وجد بينهما اختلاف ، فليس ذلك إلا في الظاهر : لأن الشريعة تتخاطب الجمهور ؛ والجمهور لا قبل له أن يدرك من

(٢) الفارابي : « فيما ينبغي أن يقدم قبل تعلم الفلسفة » ( ضمن : « المجموع »

القاهرة سنة ١٩٠٧ م ص ٦٢ ) .

أسرار الأمور وبواطنها ما يدركه الفلاسفة بالبراهين الحقيقية :  
 لذلك خاطبهم الشرع بما استطاعوا تصوره وإدراكه .  
 ونحن نرى هذه الفكرة تنشأ عند الفارابي ولا تلبث أن تنمو  
 وترعرع مع الزمن عند خلفائه من الفلاسفة حتى تبلغ القمة في  
 الوضوح والصراحة لدى الفيلسوف ابن رشد .

\* \* \*

ولننظر قول الفارابي في رسالته المسماة « الجمع بين رأيي  
 الحكيمين أفلاطون وأرسطو » ، وهي رسالة كتبها وفسر فيها العالم  
 تفسيراً فلسفياً لا يناقض الدين الإسلامي : « والبرهانيات موكولة  
 إلى أصحاب الأذهان الصافية والعقول المستقيمة ، والسياسيات  
 موكولة إلى ذوى الآراء السديدة ، والشرعيات موكولة إلى ذوى  
 الإلهامات الروحانية ، وأعم هذه كلها الشرعيات ، وألفاظها خارجة  
 عن مقادير عقول المخاطبين ، ولذلك لا يؤخذون بما لا يطبقون  
 تصوره : فإن من تصور في أمر المبدع أنه جسم ، وأنه يفعل  
 بحركة وزمان ، ثم لا يقدر بذهنه على تصور ما هو أطف من ذلك  
 وأليق به ، ومهما توهم أنه غير جسم وأنه يفعل بلا حركة وزمان  
 لا يثبت في ذهنه معنى متصور البتة ، وإن أجبر على ذلك زاده  
 غياً وضلالاً ، وكان فيما يتصوره ويعتقده معذوراً مصيباً ، ثم  
 يقدر بذهنه أنه غير جسم وأن فعله بلا حركة ، غير أنه لا يقدر

على تصور أنه لا في مكان ، وإن أجبر على ذلك وكلف تصوره تبدل ، فإنه يترك على حاله ولا يساق إلى غيرها . وكذلك لا يقدر الجمهور على معرفة شيء يحدث لاعن شيء ، ويفسد لا إلى شيء ، فلذلك ما قد خوطبوا بما قدروا على تصوره وإدراكه وتفهمه . لا يجوز أن ينسب شيء من ذلك فيما هو في موضعه إلى الخطأ والوهن ، بل كل ذلك صواب مستقيم . فطرق البراهين المقنعة المستقيمة العجيبة النفع منشأها عند أصحاب الشرائع الذين عوضوا بالإبداع الوحي والإلهامات ،<sup>(٣)</sup>

ونرى الفارابي يعرض في هذه الرسالة أيضاً لأراء أفلاطون وأرسطو في مسائل عدة ، ويحاول أن يبين أنه لاخلاف فيها بين آرائهما من جهة ، ولا بين آرائهما وبين العقيدة الإسلامية من جهة أخرى . وأخيراً يتناول فيها ثلاث مسائل مما كثر حولها التنازع بين أهل النظر العقلي وأصحاب النظر الشرعي . ويشير إلى مواضع الشبه ومداخل الشكوك فيها ، وهي : قدم العالم ، وإثبات الصانع ، والثواب العقاب . ويحاول أن يثبت اتفاق أفلاطون وأرسطو على أن العالم محدث وليس بقديم ، واتفاقهما على أنه لا بد له من صانع ، وينفي عنهما شبهة الاعتقاد بنبي الثواب والعقاب ، ويستدل

(٣) الفارابي : « الجمع بين رأي الحكيمين أفلاطون وأرسطو » ( ضمن :

« المجموع » ص ٣٠ - ٣١ )

على أن أرسطو كان يرى أن الجزاء واجب في الطبيعة برسالة كتبها أرسطو نفسه إلى والده الإسكندر حين بلغها نعيه وجزعت عليه (٤)

\* \* \*

أما ابن سينا فكلامه في هذا المعنى أصرح وأجلى فبعد أن أثبت الحاجة إلى وجود نبي يخاطب الناس لهدايتهم وإقامة العدل بينهم ويسن للناس في أمور معاشهم سنناً بأمر الله تعالى ، ووجهه قال: « فيكون الأصل فيما يسنه تعريفه إياهم أن لها صانعاً واحداً قادراً ، وأنه عالم بالسر والعلانية ، وأنه من حقه أن يطاع أمره ، وأنه يجب أن يكون الأمر لمن له الخلق ، وأنه قد أعد لمن أطاعه المعاد المسعد ، ولمن عصاه المعاد المشق ، حتى يتلقى الجمهور رسمه المنزل على لسانه من الإله والملائكة بالسمع والطاعة . ولا ينبغي له أن يشغلهم بشيء من معرفة الله تعالى فوق أنه واحد حق لا شبيه له . أما أن يتعدى بهم إلى تكليفهم أن يصدقوا بوجوده وهو غير مشار إليه في مكان فلا ينقسم بالقول ، ولا هو خارج العالم ولا داخله ، ولا شيء من هذا الجنس — فقد عظم عليهم الشغل وشوش فيما بين أيديهم الدين ، وأوقعهم فيما لا يخلص عنه إلا من كان الموفق الذي يشد وجوده ويندر كونه : فإنه لا يمكنهم

(٤) الفارابي : «الجمع بين رأيي الحكيمين أفلاطون وأرسطو» «المجموع»



أن يتصوروا هذه الأحوال على وجهها إلا بكد . وإنما يمكن القليل منهم أن يتصور حقيقة هذا التوحيد والتنزيه ، فلا يلبثون أن يكذبوا بمثل هذا الوجود ، أو يقعوا في الشارع ، وينصرفوا إلى المباحثات والمقاييس التي تصدم عن أعمالهم البدنية ، وربما أوقعتهم في آراء مخالفة لصالح المدينة ومنافية لواجب الحق ، فكثرت فيهم الشكوك والشبه وصعب الأمر على اللسان في ضبطهم . فما كل متيسر له في الحكمة الإلهية . ولا يصح بحال أن يظهر أن عنده حقيقة يكتنمها عن العامة ، بل لا يجب أن يرخص في التعريض بشيء من الأشياء التي هي عندهم عظيمة وجليلة ، ويلقى إليهم منه هذا القدر ، أعنى أنه لا نظير له ولا شبيه ولا شريك . وكذلك يجب أن يقرر عندهم أمر المعاد على وجه يتصورون كيفيته وتسكن إليه نفوسهم ويضرب للسعادة والشقاوة أمثالاً مما يفهمونه ويتصورونه .

أما الحق في ذلك فلا يلوح لهم منه إلا أمرًا بجملاً : وهو أن ذلك شيء لا عين رأت ولا أذن سمعته ... ولا بأس أن يشتمل خطابه على رموز وإشارات ليستدعي المستعدين بالجبلة للنظر إلى البحث الحكيم في العبادات ومنفعتيها في الدنيا والآخرة .. (٥)

(٥) ابن سينا : « النجاة » طبع القاهرة سنة ١٣٣١ هـ من ٤٩٨ — ٥٠٢

وبعد هذا يمضى ابن سينا منبهاً إلى ما ينبغى أن يسن النبي للناس من فروض العبادات ووسائل القربى إلى الله . ثم يقول : « فلهذا الأحوال ( أحوال العبادات والقربى ) ينتفع بها العامة في رسوخ ذكر الله - عز اسمه - في أنفسهم ، فيدوم لهم التثبيت بالسنن والشرائع بسبب ذلك ، وإن لم يمكن لهم مثل هذه المذكرات تناسوا جميع ذلك مع انقراض قرن أو قرنين ؛ وينفعهم أيضاً في المعاد منفعة عظيمة فيما ينزه به أنفسهم على ما عرفته . وأما الخاصة فأكثر منفعة هذه الأشياء إياهم في المعاد ؛ فقد قررنا حال المعاد الحقيقي ، وأثبتنا أن السعادة في الآخرة مكتسبة بتزوية النفس ، وتزوية النفس تبعيدها عن الهيئات البدنية المضادة لأسباب السعادة . (٦) .

فظاهر من كلام ابن سينا أنه يقسم الناس بإزاء الدين فريقين : خاصة وعامة ؛ فالخاصة هم أهل النظر في العقائد والعبادات ؛ أما العامة فينبغى ألا يلتقى إليهم من ذلك إلا ما تقبله أفهامهم وتتسع له مداركهم خشية أن تضطرب آراؤهم وتزلزل عقائدهم .

فمقصد الدين هداية الناس لبلوغ السعادة في الدارين ، ومقصد الفلسفة تأهيل الفيلسوف لدرك السعادة الحقيقية : ولكن ماهى هذه

(٦) ابن سينا : المصدر نفسه ص ٥٠٤ .

السعادة الحقيقية التي ينشدها الفيلسوف؟ وكيف السبيل إلى تحقيقها؟ يرى ابن سينا أنه للوصول إلى « السعادة الحقيقية » ينبغي أن يتوافر في حق الفيلسوف ركنان : أحدهما نظري والآخر عملي . أما الركن النظري فهو كمال المعرفة كما رأينا لدى الفارابي . ولكن كمال المعرفة عند ابن سينا على ضربين : أحدهما : تصور المبادئ المفارقة تصوراً حقيقياً والتصديق بها تصديقاً يقينياً . والثاني : معرفة العلة الغائية للأمور الواقعة في الحركات الكلية دون الجزئية . والثالث معرفة النظام الكلي والترتيب الذي عليه الكائنات من المبدأ الأول إلى أخس الموجودات . والرابع تصور العناية الإلهية وكيفيةها — ثم لا بد أخيراً من توثيق العلاقة مع العالم الآخر والشوق إليه : هذا هو الركن النظري في تحقيق السعادة .

أما الركن العملي فتنزيه النفس، أي تبيدها عن الهيئات البدنية المضادة لأسباب السعادة . وهذا التنزيه يحصل بأخلاق وملكات ، والأخلاق والملكات تكتسب بأفعال من شأنها أن تصرف النفس عن البدن والحس ، وتديم تذكيرها المعدن الذي لها ، حتى تزكو وتشتاق إلى كمالها وتطلبه ؛ فإذا كانت كثيرة الرجوع إلى ذاتها لم تنفعل ولم تتأثر من الأحوال البدنية . وإن دامت هذه الأفعال من الإنسان استفاد ملكة الالتفات إلى جهة الحق

والإعراض عن الباطل ، وصار شديد الاستعداد للتخلص إلى  
السعادة بعد مفارقة البدن<sup>(٧)</sup>

\* \* \*

ولنخطُ الآن إلى الغزالي، ذلك الجبار الذي أمعن في الفلسفة  
طعناً وتجريماً ، ونادى بوجوب زجر كل من يخوض في علومها ،  
بمحجة أن بعض الذين مارسوها ركبوا شططاً وانحرفوا عن جادة  
العقيدة الشرعية<sup>(٨)</sup> .

ولسنا نفهم كيف ساغ للغزالي أن يطعن على الفلاسفة ، ويرميها  
بتشويش آراء العوام وهدم معتقداتهم الدينية ، مع أن العامة هم  
أبعد الناس عن الاطلاع على آراء الفلاسفة والوقوف على دقائق  
مباحثهم ، ومع أن الفلاسفة أنفسهم ما طمعوا يوماً في استرضاء  
الجاهل ولا النزول إلى مجادلة العوام والجهال ، ولكنهم توخوا  
من مبدأ الأمر أن يخاطبوا طبقة الخواص والعلماء ، على  
ما أوضحنا بيانه فيما سبق من القول .

وليت شعري أكان الغزالي منطقياً مع نفسه في الجهر بهذه

(٧) ابن سينا : « النجاة » ص ٤٨٥ . بع . وأيضاً : ابن سينا : « أحوال  
النفس » الفصل الخامس عشر ( طبعه أحمد فؤاد الأهواني ، سنة ١٩٥٢  
ص ١٢٧ بع .

(٨) الزالي : « المنقذ من الضلال » ، فصل في أقسام علوم الفلسفة .

الصيحة ضد الفلاسفة؟ مع أننا نراه يقول، في مفتاح كتابه « إجمام العوام عن علم الكلام ، مانصه : « أما بعد فقد سألتني — أرشدك الله — عن الأخبار الموهمة للتشبيه عند الرعاع والجهال من الحشوية الضلال ، حيث اعتقدوا في الله وصفاته ما يتعالى ويتقدس عنه من الصورة واليد والقدم والنزول والانتقال والجلوس على العرش والاستقرار وما يجري مجراه... » ثم يقول بعد ذلك « وحقيقة مذهب السلف — وهو الحق عندنا — أن كل من بلغه حديث من هذه الأحاديث من عوام الخلق ، يجب عليه فيه سبعة أمور : التقديس ، ثم التصديق ، ثم الاعتراف بالهجز ثم السكوت ، ثم الإمساك ، ثم الكف ، ثم التسليم لأهل المعرفة... » (١) .

أليس هذا هو عين ما يقول به الفلاسفة ، على ما رأينا ، من وجوب صرف العامة عن البحث في حقائق أمور الدين ووجوب عدم التصريح لهم بما يعسر عليهم إدراكه ، بل يترك ذلك إلى أهل المعرفة والعلماء؟

الحق أنه إذا كان هناك من هو أولى باللوم والمواخذة لتصريحه في بعض كتبه بما لا يجب التصريح به للجماهير ، فهو الغزالي نفسه ومعه فريق من المتكلمين .

(٩) الغزالي : « إجمام العوام عن علم الكلام » ، القاهرة ١٣٠٣ هـ ، ص ٢ — ٣

(١٠)

يبدو لمن تتبع ما كتبه الغزالي في هذه المسائل أنه لم يثبت في كتبه على رأى ، و خلط فيها تبعاً لمخاطبته تارة للخاصة وتارة للجمهور . وحسبنا بياناً لهذا الخلط أن نورد رأى ابن طفيل فيه ، قال :

« وأما كتب الشيخ أبي حامد الغزالي فهو بحسب مخاطبته للجمهور يربط في موضع ويحل في آخر ، ويكفر بأشياء ثم ينتحلها ثم إنه من جملة ما كفر به الفلاسفة في كتاب « التهافت » إنكارهم لحشر الأجساد وإثباتهم الثواب والعقاب للنفوس خاصة . ثم قال في أول كتاب « الميزان » أن هذا الاعتقاد هو اعتقاد شيوخ الصوفية على القطع . ثم قال في كتاب « المنقذ من الضلال » إن اعتقاده هو كاعتقاد الصوفية ، وأن أمره إنما وقف على ذلك بعد طول البحث . وفي كتبه من هذا النوع كثير يراه من تصفحها وأمعن النظر فيها . وقد اعتذر عن هذا الفعل في آخر كتاب « ميزان العمل » حيث وصف أن الآراء ثلاثة أقسام : رأى يشارك فيه الجمهور فيما عليه ، ورأى يكون بحسب ما يخاطب به كل سائل ومسترشد ، ورأى يكون بين الإنسان وبين نفسه لا يطلع عليه إلا من هو شريكه في اعتقاده . ثم قال بعد ذلك : ولو لم يكن في هذه الألفاظ إلا ما يشكك في اعتقادك الموروث لكفى بذلك نفعاً :

فان من لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر بقي  
 في العمى والحيرة . ثم تمثل بهذا البيت :  
 خذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به  
 في طلعة البدر ما يغنيك عن زحل

فهذه صفة تعليمه ، وأكثره إنما هو رمز وإشارة ، لا ينتفع  
 به إلا من وقف عليها ببصيرة نفسه أولاً ، ثم سمعها منه ثانياً ، أو  
 من كان معداً لفهمها فاتق الفطرة فهو يكتبني بأيسر إشارة .. (١٠)

\* \* \*

أما الفيلسوف الأندلسي ابن طفيل فما علينا إلا أن نقرأ قصته  
 الفلسفية الرائعة التي سماها « حى بن يقظان » ، فنجد ذلك المعنى الذي  
 أشرنا إليه ممثلاً فيها أبلغ تمثيل . وخلاصة هذا الرأي عنده أن  
 الحقيقة المجردة الخالصة لا يحسن أن يصرح بها للعامة المسكبين في  
 أغلال الحواس ؛ وأنه لأجل النفاذ إلى تلك الأذهان الجامدة  
 والتأثير على هذه الإرادات العاتية ، اقتضت الحكمة أن تحاط  
 الحقيقة بالرموز والاشارات . وذلك شأن الأديان المنزلة (١١) .

(١٠) ابن طفيل : « جواب على - سؤال » (ضمن « فلسفه أبى جعفر بن طفيل »

لفرح أنطون ، الاسكندرية ، سنة ١٩٠٤ ، ص ١٠ - ١١ )

(١١) ابن طفيل : « حى بن يقظان » طبعة مكتب النشر العربي ، دمشق

أما ابن رشد فقد كتب في هذا الموضوع وأسهب : كتب فيه رسالته « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » و« الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة » . وهو يبين في « فصل المقال » أن الحكمة تطابق الشرع ولا تخالفه : فإن الشرع قد أوجب النظر في الموجودات واعتبارها ؛ ولما كان الاعتبار ليس شيئاً أكثر من استنباط المجهول من المعلوم واستخراجه منه — وهذا هو القياس العقلي — فواجب أن نجعل نظرنا في الوجود بالقياس العقلي ؛ وإذا كان قد عرض لصناعة القياس العقلي سوء استعمال من قبل بعض الناس كما عرض لغيرها من الصناعات ، فليس معنى هذا أن يصدف سائر الناس عنها ، أو أن ينهوا عن ممارستها . وليس يلزم كما يقول ابن رشد : « من أنه إن غوى غاوا بالنظر فيها وزلّ زالّ » ، إما من قبل نقص فطرته ، أو من قبل سوء ترتيب نظره فيها ، أو من قبل غلبة شهواته عليه ، أو أنه لم يجد مفعلاً يرشده إلى فهم ما فيها ، أو من قبل اجتماع هذه الأسباب فيه أو أكثر من واحد منها — أن يمنعها عن الذي هو أهل للنظر فيها : فإن هذا النحو من الضرر الداخلي من قبلها ، هو شيء لحقها بالعرض لا بالذات ؛ وليس يجب فيما كان نافعاً بطباعه وذاته



أن يترك لمكان مضرّة موجودة فيه بالعرض، (١٢)  
 إذن فالشرع يدعو إلى النظر البرهاني . ولكن كيف السبيل  
 إذا أدانا النظر البرهاني إلى نحو من المعرفة يخالف اظاهر ما نطق  
 به الشرع ؟

هنا يقبر ابن رشد أنه إن أدى النظر البرهاني إلى نحو من  
 المعرفة بوجود ما فلا يخلو ذلك الموجود أن يكون قد سكت عنه  
 في الشرع أو عرف به .

فإذا كان مما سكت عنه فلا تعارض هناك ، وهو بمنزلة  
 ما سكت عنه من الأحكام ، فاستنبطها الفقيه بالقياس الشرعي .

وإن كانت الشريعة نطقت به فلا يخلو ظاهر النطق أن يكون  
 موافقاً لما أدى إليه البرهان فيه أو مخالفاً . فان كان موافقاً فلا  
 قول هناك . وإن كان مخالفاً طلب هناك تأويله . والتأويل  
 معناه إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية  
 من غير أن يخل في ذلك بعادة لسان العرب في التجوز من تسمية  
 الشيء بشبيهه أو سببه أو لاحقه أو مقارنه أو غير ذلك من  
 الأشياء التي عودت في تعريف أصناف الكلام المجازي .

وإبن رشد يقطع قطعاً بأن كل ما أدى إليه البرهان وخالفه

(١٢) ابن رشد : « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » ،

ظاهر الشرع فذلك الظاهر يقبل التأويل على قانون التأويل العربي .  
على أنه ليس ينبغي أن تحمل ألقاظ الشرع كلها على ظاهرها ،  
ولا أن تخرج كلها من ظاهرها بالتأويل ؛ فالتأويل أحكام  
يجب مراعاتها (١٣) .

والشريعة إذن قسيمان : ظاهر وباطن ؛ وسبب ذلك اختلاف  
قطر الناس وتباين قرائنهم في التصديق . والظاهر هو فرض الجمهور ؛ أما  
المؤول فهو فرض العلماء ، ولا يصح أن يفصح بتأويله للجمهور ؛ إذ  
يجب ألا يعلم بالباطن من ليس من أهل العلم به ولا يقدر على فهمه ،  
كما روي البخاري عن علي كرم الله وجهه أنه قال : « حدثوا الناس بما  
يعرفون ، أتريدون أن يكذب الله ورسوله » . ولهذا لا ينبغي أن تثبت  
التأويلات إلا في كتب البراهين ، لأنها إذا كانت في كتب البراهين  
لم يصل إليها إلا من هو أهل البرهان ، وهم الخاصة والعلماء . وأما  
إذا ثبتت في غير كتب البرهان واستعمل فيها الكتب الشعرية  
والخطابية أو الجدلية فخطأ على الشرع وعلى الفلسفة . ومن أجل  
هذا يعيب ابن رشد على الغزالي أنه صرح بالحكمة كلها للجمهور  
وبآراء الحكماء على ما أداه إليه فهمه في كتابه « مقاصد الفلاسفة » .  
وكان الصواب أن يقر الشرع على ظاهره وألا يصرح للجمهور

بالجمع بينه وبين الحكمة : لأن التصريح بذلك هو التصريح بنتاج الحكمة لهم دون أن يكون عندهم برهان عليها . وهذا غير جائز : لأن المصرح إليه لا يكون حينئذ لافع العلماء الجامعين بين الشرع والعقل ، ولا مع الجمهور المتبعين لظاهر الشرع . وإذن فالغزالي ، في نظر ابن رشد ، قد أدخل في كتبه بالشرع والحكمة جميعاً : أدخل بالشرع لإفصاحه فيها بالتأويل الذي لا يجب الإفصاح به ، وأدخل بالحكمة لأنه أفصح بمعان يجب ألا يصرح بها إلا في كتب البرهان (١٤) .

فإذا رأى قوم من المنتسبين إلى الشرع أو إلى الحكمة أن الحكمة مخالفة للشرعية ، فليعلموا أنها ليست تخالفها ، وليعرف كل واحد من الفريقين أنه لم يقف على كنهها بالحقيقة . . ثم يقول ابن رشد بعد هذا : « إن الرأى فى الشرعية الذى أعتقد مخالفته للحكمة رأى إما مبتدع فى الشرعية ليس من أصلها . وإما هو رأى خطأ فى الحكمة أعنى أنه تأويل خطأ عليها (١٥) » كما عرض فى مسألة علم الجزئيات وفى غيرها من المسائل . والمتأمل لأصول الشرعية يجدها أشد مطابقة للحكمة بما أول منها ؛ مثال ذلك ما وقع

(١٤) ابن رشد : « الكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة » ( ضمن

« فصل المقال » ص ٨٣ ) .

(١٥) ابن رشد : « الكشف عن مناهج الأدلة » ص ٧٤ .

في مسألة القضاء والقدر : فإن الشرع يوافق فيها العقل ، مع أن المتأولين قد خرجوا بها عن مقصد الشرع . وقد وقعوا في حيرة حين رأوا تعارضاً في الأدلة السمعية وتعارضاً في الأدلة العقلية : بعض الأدلة تدل على أن الإنسان مضطر . وبعضها على أنه مخير ؛ لكن ابن رشد يرى في النوفيق بين هذا التعارض في المعقول والمسموع - يرى رأياً يتفق مع الشرع ولا يخالف حكم العقل : فعنده أن الظاهر من مقصد الشرع ليس التفريق بين هذين الاعتقادين ، أعنى الجبر والاختيار ، وإنما قصده الجمع بينهما على التوسط : لا جبر ولا تفويض بل الأمر بين الأمرين ( جعفر الصادق ) : وذلك أن الله خالق لنا قوى نقدر بها على اكتساب أفعالنا . لكن الاكتساب لتلك الأفعال لا يتم إلا بمواتاة الأسباب التي سخرها الله من خارج وزوال العوائق عنها . فإرادتنا إذن مقيدة بالأمور التي من خارج ومربوطة بها ، بحيث أن الأفعال المنسوبة إلينا يتم فعلها بإرادتنا وبموافقة الأفعال التي من خارج لها ، وهي المعبر عنها « بقدر الله » . ولما كانت الأسباب التي من خارج تجري على نظام محدود وترتيب مقدر ، فوجب أن تكون أفعالنا تجري على نظام محدود ، أعنى أنها توجد في أوقات محدودة وبمقدار محدود . وليس هناك ارتباط بين أفعالنا والأسباب التي خلقها الله تعالى في داخل أبداننا ؛ والنظام المحدود الذي في الأسباب الداخلة

والخارجة هو « القضاء والقدر » . وعلم الله بهذه الأسباب وبما يلزم عنها هو العلة في وجود هذه الأسباب : لذلك كان الله هو العالم بالغيب وحده . وكذلك استطاع ابن رشد أن يبين كيف أن لنا اكتساباً في أفعالنا ، وكيف أن جميع مكتسباتنا بقضاء وقدر سابق ، وذلك في نظر ابن رشد هو الجمع الذي قصده الشرع في مسألة القضاء والقدر . وعلى هذا النحو جرى الفيلسوف في عدة مسائل أخرى تمس الفلسفة والدين (١٦) .

ولابن رشد نظرية في التأويل ، يبحث فيها فيما يجوز تأويله في الشرع وما لا يجوز . فيرى أن المعاني الموجودة في الشرع صنفان : أولها أن يكون المعنى الذي صرح به هو بعينه الموجود بنفسه ؛ وهذا الصنف لا يقبل التأويل ، وتأويله خطأ من غير شك . الثاني ألا يكون المعنى المصرح به في الشرع هو المعنى الموجود وإنما أخذ بدله على جهة التمثيل . وهذا الصنف على أربعة أقسام :

(١) أن يكون المعنى الذي صرح بمثاله لا يعلم وجوده لا بمقاييس بعيدة مركبة تتعلم في زمان طويل ، وصنائع جمّة ، وليس يمكن أن تقبلها إلا الفطر الفائقة ؛ وكذلك لا يعلم لماذا هو مثال إلا بعلم بعيد : وهذا القسم تأويله خاص بالراسخين في العلم ولا يجوز التصريح به لغير الراسخين .

(٢) أن يعلم كونه مثالا ، ولماذا هو مثال — الأمران يعلمان جميعاً بعلم قريب : وهذا تأويله هو المقصود والتصريح به واجب .  
 (٣) أن يعلم أنه مثال لشيء بعلم قريب ، ويعلم لماذا هو مثال بعلم بعيد ، مثل قوله عليه السلام « الحجر الأسود يمين الله في الأرض » ، فهذا لم يأت التمثيل فيه من أجل بعده عن أفهام الجمهور إنما أتى فيه التمثيل لتحريك النفوس إليه ؛ والواجب فيه ألا يتأوله إلا الخواص والعلماء ؛ ويقال للذين شعروا أنه مثال ، ولم يكونوا من أهل العلم لماذا هو مثال : إما أنه من المتشابه الذي يعلمه العلماء الراسخون ؛ وإما أن ينقل التمثيل فيه لهم إلى ما هو أقرب من معارفهم أنه مثال .

(٤) أن يكون كونه مثالا معلوماً بعلم بعيد ، إلا أنه إذا سلم أنه مثال ظهر عن قريب لماذا هو مثال ؛ وهذا القسم فيه نظر : فيحتمل أن يقال إن الأولى ترك التأويل في حق من لا يدركون أنه مثال إلا بشبهه ، ويدركون أنه إن كان مثالا فلماذا هو مثال ؟ ويحتمل أن يطلق لهم التأويل لقوة الشبه الذي بين ذلك الشيء وذلك الممثل به ..

لكن ابن رشد يرى أن القسمين الأخيرين متى أبيض التأويل فيهما تولدت منهما اعتقادات غريبة وبعيدة عن ظاهر الشريعة ، وأنه لما كان قد تسلط على التأويل في هذه الشريعة من لم يتميز له

هذه المواضع ، ولا تميز له الصنف من الناس الذين يجوز التأويل في حقهم ، اضطرب الأمر فيها ، وحدثت فيهم فرق متباينة يكفر بعضهم بعضاً . . . ومن هذا اختلفوا ، فقال قوم أول الواجبات الإيمان ، وقال آخرون بل أول الواجبات النظر ، فلم يعرفوا أى الطرق الثلاثة ( يعنى الخطائية والجدلية والبرهانية ) هى المشتركة للجميع والتي دعا الشرع من أبوابها جميع الناس ؛ وظنوا أن ذلك طريق واحد ، فأخطأوا مقصد الشارع ، مع أنه إذا قوبل الكتاب العزيز وجد فيه الطرق الثلاثة ؛ فمن حرفها بتأويل لا يكون ظاهراً بنفسه ، أو أظهر منها للجميع وذلك شيء غير موجود ، فقد أبطل حكمتها ، (١٧) .

فإذا تقرر هذا وكنا « نعتقد معشر المسلمين أن ديننا حق » ، وأنه يدعو إلى النظر المؤدى إلى الحق ، فإننا نعلم قطعاً أن النظر البرهاني لا يؤدى إلى مخالفة ماورد به الشرع : لأن الحق لا يضاد الحق بل يوافقه ويشهد له .

والخلاصة أن ابن رشد يرى أن الحكمة هى صاحبة الشريعة بل هما كما يمثلهما بعبارته الجذابة : « أختان رضيعتان » ، (١٨) .

(١٧) ابن رشد : « الكشف عن مناهج الأدلة » ص ١٢٤ — ١٢٦ .

(١٨) راجع : ليون جوتييه : « نظرية ابن رشد عن الصلات بين الدين والفلسفة »

باريس ١٩٠٩ ؛ وأيضاً : ليون جوتييه : « ابن رشد » باريس ١٩٤٨ ( الفصل الثالث ) .

والواقع أن فلاسفة الإسلام جميعاً - وعلى رغم الغزالي - كانوا يشعرون شعوراً عميقاً بجلال الفلسفة وشرف مكانها من العلوم . وكانوا من ناحية أخرى يقدرون حق التقدير ما للدين من نفع اجتماعي عظيم الخطر ، ويشعرون شعوراً قوياً بأنه من أشد الأمور لزوماً للجمهور .

فلم يكونوا يرون لذلك بين الدين والفلسفة خصومة ولا تضالاً وإنما هما يمثلان مرحلتين من مراحل الفكر الإنساني : كلاهما له مجاله الخاص ، وكلاهما يؤدي في الحياة مهمةً ليس عنها غناء : مهمة الشرع عملية ، تتناول تدير أحوال الناس على ما تنتظم به أسباب معاشهم ومصالح معادهم ؛ ومهمة الفلسفة نظرية ، تتعرض للبحث في حقائق الأمور وأسرار العقائد ؛ ثم إن الشريعة تتخاطب « جمهور » الناس وكافتهم ، في حين أن الفلسفة بطبيعتها لا يمكن أن تقصد بدعوتها إلا إلى « الخاصة » الممتازين أو « أهل الفطر الفاتقة » على حد تعبير ابن رشد .

والدين يلقي حججاً على بعض الحقائق ، فتصبح مقبولة سائغة لدى العوام ، من غير أن يغفل عن تنبيه الخواص للفحص عن الخفي المستور . والفلسفة هي التي تهتك بنور الفكر ذلك الحجاب ، فيسفر لها وجه الحقيقة ، وقد يجعل الفيلسوف من معرفة هذه الحقيقة عبادة لله وزلفى .



ذلك أن الفيلسوف حين ينظر في الدين، يسلم بصحته في مجاله الخاص، بحيث لا تصطدم الفلسفة بالدين بتاتا؛ أما الفلسفة فهي أسمى صور الحق، وهي في الوقت نفسه أسمى دين؛ ودين الفلاسفة هو معرفة كل ما هو موجود، (١٩).

\* \* \*

و فرق بين موقف الفلسفة من الدين عند فلاسفة الإسلام، وبين موقفها منه عند فلاسفة المسيحية في العصر الوسيط .

لم يكن للفلسفة في عهود المسيحية الوسطى سلطان مستقل عن غيرها، ولم يكن ثمة مبرر للاشتغال بها إلا باعتبار ما تستطيع أن تؤدي إلى الكنيسة من خدمات، وبالقدر الذي كانت تصلح به أن تتخذ سلاحاً للذب عن الدين .

كان الدين حينئذ هو الغاية، ولم تكن الفلسفة إزاءه إلا وسيلة. أما فلاسفة الإسلام فكانت نظرتهم إلى الفلسفة أسمى وأرفع: كانوا يرون لها مكانها الأول الذي لا ينازع، وسلطانها المعتبر الذي لا تستمده إلا من جلال ذاتها .

نعم إنها في يقينهم لا تناكر الدين ولا تبغضه، غير أنها مع

(١٩) ج . دي بور : « تاريخ الفلسفة في الإسلام » ترجمة ابوريده ص ٢٦٦

هذا ليست له تابعة ولا خادمة، بل إنها لتبدو في الغالب تلك السيدة  
الأميرة التي يملأها الشعور بشرفها وتفوقها على أترباها .

أليس في التفريق الذي رأيناه بين طائفتي «الخاصة» و«العامة»  
ما يشعرتنا بهذه السيادة؟ ألم ينص الفارابي نفسه على أن أول  
شرط في «رئيس المدينة الفاضلة» أن يكون بعد كبر السن «حكيمًا»؟

لعلنا إذا قلنا بعد هذا إن موقف الفلاسفة من الدين - في نظر  
فلاسفة الاسلام - يشبه أن يكون موقف الأرسقراطية المفكرة  
المستنيرة من الديماجوجية العامية المغمورة ، لم نكن في قولنا  
متجذرين ولا مسرفين .

## أثر ابن سينا في الغرب

إسبانيا حلقة الاتصال الأولى بين الإفرنج والثقافة العربية - أثر نقل المؤلفات العربية إلى اللاتينية - نقل كتاب « الشفاء » لابن سينا - أثر ابن سينا في مذاهب « الأوغسطينيين » - « السينويون اللاتينيون » - الإعجاب بابن سينا - ابن سينا يكمل أرسطو - جنديسالينوس - جيوم الأوفرنى يعارض ابن سينا - روجر بيكون - أوغسطينية نازعة إلى السينوية - القديس توما الأكوبي - التفرقة بين الواجب والممكن .

١ - كانت إسبانيا ، في العصر الوسيط ، حلقة الاتصال الأولى بين الإفرنج والثقافة الإسلامية . وقد ارتبط انتقال المؤلفات العربية إلى اللغة اللاتينية باسم العالم اللاهوتي « ريمون » ، الذي كان رئيس أساقفة طليطلة من سنة ١١٣٠ إلى سنة ١١٥٠ م . وفي طليطلة كان المسلمون يعيشون جنباً إلى جنب مع المسيحيين ، وكان وجودهم في عاصمة الملك ومقر رئيس الأساقفة مما دفع جيرانهم إلى الاهتمام بالحياة العقلية الإسلامية . وفي طليطلة أسس « ريمون » ديواناً للترجمة يشرف عليه « جنديسالينوس » ( المتوفى سنة ١١٥١ ) ، ومهمته ترجمة أمهات الكتب العربية : فنقل الديوان بإشراف « جنديسالينوس » . ومن بعده « جيرار

دى كريمونا ، (المتوفى سنة ١١٨٧) كثيراً من الترجمات العربية لمؤلفات أرسطو وكثيراً من مصنفات الفارابي وابن سينا .

٢ - وكان من أثر نقل المؤلفات العربية إلى اللاتينية أن بذل مجهود فكري جديد من المؤيدين والمعارضين ، فامتدت آفاق النظر عند الغربيين وأصبح للفكر العربي عندهم أثر بعيد . وما كاد ينقضى قرن على الترجمات الأولى للمصنفات العربية حتى كان الرأي قد استقر عند الإفرنج على اختيار فلسفة ابن سينا ممثلة للفلسفة الإسلامية : فقد عرفوا ميتافيزيقا ابن سينا قبل أن يعرفوا ميتافيزيقا أرسطو بنصف قرن ؛ وترجم « جنديساليوس » كتاب « الشفاء » إلى اللاتينية ، وهو في الفلسفة أشبه بدائرة معارف أو موسوعة فلسفية كاملة ؛ أما كتاب « القانون في الطب » فقد ترجمه « جيرار دى كريمونا » فأصبح كتاباً مدرسياً يعول عليه في مختلف الكليات الأوروبية من القرن الثالث عشر حتى القرن السابع عشر ؛ وبهذا الكتاب أصاب ابن سينا أثراً واسع النطاق ، حتى جعله الشاعر « داتى » ، في منزلة بين إبقراط وجالينوس ؛ وذهب « سكالنجر » إلى أنه قرين جالينوس في الطب ولكنه أسمي منه مرتبة في الفلسفة .

٣ - في سلسلة من البحوث القيمة ، بين الأستاذ « جيلسون »

مؤرخ الفلسفة المسيحية الكبير ، مدى الأثر الذي كان لابن سينا في الفكر الأوربي إبان العصور الوسطى المسيحية ، كما أوضح الصلات الوثيقة بين الفيلسوف الإسلامى واللاهوتيين المنتمين إلى مذهب القديس أوغسطين ، وبين أن « الفلسفة في القرن الثالث عشر عبارة عن مختلف المواقف من أرسطو وابن سينا وابن رشد : « يأخذ الأوغسطينيون من الأفكار الجديدة طائفة يكملون بها مذهبهم مع شيء من التأويل ، وينبذون طائفة أخرى : يأخذون عن ابن سينا اشراق العقل الفعال ، إلا أنهم يضيفون لله المعانى التى يضيفها ابن سينا لعقل فلك القمر ، ؛ واقترح « جيلسون ، أن يطلق على هذا التيار الفكرى اسم « الأوغسطينية النازعة إلى السينوية » .

٤ - وبعد « جيلسون ، أقبل الباحثون على هذا الموضوع الخطير ، فتوسعوا فيه ، وتناولوا مفكرين مدرسيين لم يكونوا أوغسطينيين . وجاء « الأب دوفو ، فنشر ١٩٣٤ بحثاً جليلاً عن « السينوية اللاتينية » في القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، فبيّن فيه أن اللاهوتيين النازعين إلى السينوية كانوا يفترون من منهل الفيلسوف العربى ؛ وحاول أن يثبت - مستعيناً بنصوص من ذلك الحين - أنه قد وجد أيضاً من المفكرين من كانوا يتابعون فلسفة ابن سينا حتى فى المواضيع التى تخالف العقيدة ، وبعبارة أخرى حاول أن يثبت

أنه إلى جانب اللاهوتيين المسيحيين الذين كانوا يتخذون فلسفة ابن سينا مصدراً لإلهامهم ، كان هناك مفكرون اعتنقوا مذهب ابن سينا ، وصرحوا بأراء سينوية مخالفة للعقيدة المسيحية : وهؤلاء هم الذين أطلق عليهم « دوفو » ، اسم « السينويين اللاتينيين » .

فإذا تساءلنا عن سبب ما كان لابن سينا من حظوة عند المسيحيين ، أجبنا الأب « دوفو » بأن ابن سينا كان فيلسوفاً كبيراً ، وأستاذاً ملهماً ومفكراً مبتكراً ، يمتاز فكره بالإصالة وتعبيره بالوضوح : وهذا الابتكار والوضوح هما مجلي عظمة الفيلسوف الإسلامي والواقع أن ابن سينا كان تلميذاً لأرسطو ، لكنه كان تلميذاً مجددًا . وهذا التجديد نفسه هو موضع الإعجاب عند المسيحيين في أمرين على الخصوص : فقد سكت أرسطو عن الكلام في أصل الكون ، ولم يتحدث عن الله إلا قليلاً . فوجدوا ابن سينا قد كمله بعناصر مستقاة من الأفلاطونية الجديدة : فأفاض في الكلام عن الله والملائكة والخلق والخير والعناية ، بل إن ابن سينا قد حارل التوفيق بين العقل والإيمان ، وهو الأمر الذي كان يشغل بال المدرسين ، لأنه كان مسلماً متمسكاً بدين يتفق مع تعاليم المسيحية في كثير من الأمور . فلم تكن أرسطية الممزوجة بالأفلاطونية الجديدة باعثةً على إعادة التفكير في معاني

الخلق والعناية فحسب ، بل إنها تركت مكاناً لعقائد مثل بعث الأجساد أو عذاب الملعونين .

وقد كان من شأن هذه الخصائص أن تجعل فاسمئة ابن سينا قريبة إلى قلوب المسيحيين . ويبدو أنهم وجدوا في آراء الفيلسوف المسلم ما كانوا يطلبون ؛ فالعالم الذي يتصوره ابن سينا فيه للإنسان مكان ؛ فهو على حدود الأرواح والأجسام ، كحاله عند أرسطو ؛ ولكن الجديد هو أن ذلك العالم يصدر عن علة أولى فاعلة : وإذن فللعالم تاريخ ، والله في أصل العالم ، وإذا كان ابن سينا يرى أن العالم قديم ، وأن علة الخلق هي الصدور ، مما يتعارض مع العقيدة المسيحية ، إلا أن آراءه قد سدت ثغرةً عند أرسطو ، وكان يبدو عليه سمات قرابة من مذهب بعض المسيحيين مثل « دينيس » . وكذلك نظرية المعرفة عند ابن سينا وجدوا فيها كل نظرية أرسطو في النفس ، مضافاً إليها أشياء عن الحواس الباطنة ، وفي الوقت نفسه حسمت تردد أرسطو في مسألة العقل الفعال : فقد قرر ابن سينا أن العقل الفعال واحد ، وأنه مفارق للمادة ، وأنه هو العقل المحرك للفلك الأقصى . وكان يكفي أن يقول قائل إن هذا العقل المفارق هو الله ، لكي تقبل كل نظرية ابن سينا في النفس وتنظم في فلسفة مسيحية : وهذا هو الحل الذي أدلى به « روجر بيكون » .

٥ - وأول مفكر مسيحي تأثر بابن سينا هو «جنديساليبنوس» رئيس ديوان الترجمة في أسبانيا . كتب رسالة في النفس بدأ فيها من ابن سينا وانتهى بأوغسطين . وقد اقتبس براهين ابن سينا عن وجود النفس ، مبيناً أنها جوهر لا عرض ، وأنها خالدة وروحية واقتبس من ابن سينا أيضاً رمزه المشهور المسمى برمز «الرجل المعلق» الذي لاصلة له بالعالم الخارجي ، ولكن فكره يكشف له أنه موجود وأنه يفكر . وهو ينقل نص ابن سينا الذي يقول فيه : «ارجع إلى نفسك وتأمل . . وهل تغفل عن وجود ذاتك ولا تثبت نفسك . . ولو زعمت أن ذاتك قد خلقت أول خلقها صحيحة العقل والهيئة ، وفرض أنها على جملة من الوضع والهيئة لا تبصر أجزاءها ولا تتلامس أعضاؤها ، بل هي منفردة ومعلقة لحظة ما في هواء طلق ، وجدتها قد غفلت عن كل شيء إلا عن ثبوت إنيتها . . وهذا الرمز قد ذكره كثيرون من مؤلفي العصر الوسيط ولذلك كان من الممكن أن يكون ديكارت أطلع عليه ، ولا سيما أن «الكوجيتو» الديكارتي شديد القرب منه

ويتابع «جنديساليبنوس» كلام ابن سينا عن طبيعة النفس بمختلف عقولها ، ومنها العقل الفعال . ولكن «جنديساليبنوس» يرى أن الله هو الذي يضئ النفس ؛ وهنا يعاد ابن سينا إلى



أوغسطين . وهكذا نرى كثيراً من الآراء السينوية تتسرب إلى العالم المسيحي وتروج بالأحاديث والمطالعات والتعليم .

٦ - وما يشهد بأثر ابن سينا عند المسيحيين في العصر الوسيط الحملة العنيفة التي حمل لواءها جيوم الأوفرنى ، المتوفى سنة ١٢٤٩ على أرسطو و « أتباعه » ، ( يقصد الفارابي وابن سينا والغزالي ) ، وهذا اللاهوتي يذكر ابن سينا حوالي أربعين مرة في كتبه ، معارضاً أقواله تارة ، ومقتبساً تعريفاته وأمثله تارة أخرى ؛ يأخذ تعريف ابن سينا للحق بأنه ما يكون في الذهن مطابقاً لما هو عليه خارج الذهن ، ويقتبس منه التفرقة بين الماهية والوجود ، والتدليل على أن النفس تدرك ذاتها بذاتها ، وهو ذلك الدليل الوارد في « الشفاء » و « الإشارات » ، والذي أشرنا إليه باسم رمز « الرجل المعلق » لكن الصورة التي رسمها ابن سينا للعالم ، بالعقول المفارقة والنفوس المحركة للكواكب ، لا يقبلها « جيوم الأوفرنى » . وبالإجمال يمكن أن يقال إنه يعارض ابن سينا في مسائل نذكر منها : القول بأن العالم قديم ، أي ليس له بداية في الزمان ، وأنه عن الله صدر عقل أول صدوراً ضرورياً ، ولم يصدر عنه سوى ذلك العقل وأن باقي العقول صدرت على التوالي ، كل عن الذي قبله ، وأن العقول عشرة فقط ، وأن العقل الفعال جوهر مفارق ، وهو العقل

المفارق للفلك الأقصى ، وأن العقل الفعال هو العلة الخالقة للنفوس الإنسانية ، وأن سعادة النفوس الإنسانية في اتحادها بالعقل المفارق. ويكفي أن نقرأ ثبت هذه المسائل لنلاحظ أن جميعها على وجه التقريب يمكن أن يشترك فيها ابن رشد مع ابن سينا ؛ ولكن يبدو أن « الأوفرنى » كان ينسبها لـإلى ابن رشد ، الذى لم يكن معروفاً لديه ، بل إلى ابن سينا خاصة - وقد بين « جيلسون » أن مذهب « الأوفرنى » فى النفس يقوم على المذهب السينوى ، بعد أن نزعته منه نظرية ابن سينا فى العقل الفعال المفارق للمادة .

٧ - ومن معاصرى « جيوم الأوفرنى » ، لاهوتى اسمه اسكندر الهاليسى ، الذى ألف كتاباً فى اللاهوت يعيننا على أن نقبين أثر ميتافيزيقا أرسطو وميتافيزيقا ابن سينا : نجده لا يذكر إلا كتاب ابن سينا مع أنه اطلع أيضاً على آراء ابن رشد، وينسب « الهاليسى » إلى ابن سينا اكتشاف قوة نفسانية جديدة هى التى تسمى « المتوهمة » .

٨ - أما « روجر بيكون » ، ( ١٢١٤ - ١٢٩٤ ) فقد قال عنه « جيلسون » إنه يمثل تمام التمثيل «الأوغسطينية النازعة إلى السينوية» . ولكنه لم يكن شاهداً فحسب على ذلك النفوذ الذى كان لابن سينا على كثير من مؤلفى ذلك الحين ، بل يعيننا أيضاً على أن ندرك

كيف كان بعض أولئك يتابعون ابن سينا متابعة تتجاوز حدود التفكير المسيحي . كان « روجر بيكون ، أكثر أساتذة القرن الثالث عشر إحاطة بحياة ابن سينا ومؤلفاته ، وهو يقدمه على ابن رشد ، ويراها « أكبر شراح أرسطو ، و « زعيم الفلسفة » . وهو حين يستعرض تاريخ الفلسفة يجعل من ابن سينا أعظم مثلي الفكر العربي ، وثاني فيلسوف بعد أرسطو ، وإنما المحدثون وارثوه ؛ وإذا وجد تعارضاً بين بعض أقوال ابن سينا ، فضل أن ينسب ذلك إلى المترجمين دون أن يخطر بباله أن فيلسوفاً مثله يمكن أن يقع في تناقض .

ويضيق المقام عن سرد جميع مقابسات « بيكون » من ابن سينا ؛ ويكفي أن نذكر أن أهمها متعلق بمشكلة المعرفة . وقد يسن « جيلسون » أن نظرية « بيكون » في الإشراق تابعة لنظرية ابن سينا في العقل الفعال المفارق ، وقد أعجب « بيكون » بما وجدته عند ابن سينا من قوة إثبات لخلود النفس والسعادة الآخروية وبمك الأجساد والخلق ووجود الملائكة ، ولكن ميله الخاص أن يبقى متمشياً مع التقاليد الأوغسطيدية .

٩ - فإذا انتقلنا إلى « القديس توما الأكويني » ( ١٢٢٥ - ١٢٧٤ ) وجدناه يشارك ابن سينا في التمييز بين

« الماهية والوجود » ، ولكي يثبت ذلك التمييز يأخذ من ابن سينا تحليله لفكرة الماهية ، وهو في المخلوقات ممكنة وليست ضرورية ( واجبة ). أما الوجود الوحيد الذى هو واجب الوجود فهو الموجود الذى ماهيته عين وجوده ( أى الله ) . وقد سلك « الإكويني » ، فى التدليل على وجود الله مسلك ابن سينا — والدليل الثالث على وجه الخصوص دليل سينوى ؛ لأنه قائم على التفرقة بين الواجب والممكن ، بل إن « الدليل الأنطولوجى » عند « القديس أنسلم » ( ١٠٢٣ — ١١٠٩ ) يرجع مصدره إلى مؤلفات ابن سينا . غير أن « توما الأكويني » يأخذ على ابن سينا مسائل منها : أنه قصر علم الله على الكليات دون الجزئيات ، فأضاف إلى الله معرفه ناقصة بالوجود ، وأبطل عنايته . . . وقد كانت نظريات ابن سينا عن الوجود منتشرة فى القرن الثالث عشر ، حتى أننا نجد اقتباسات منها فى تعليقات « إيكارت » ، ( ١٢٦٠ — ١٢٢٧ ) على كتاب « الحكمة » ، ومنذ ذلك الحين ثبت مركز ابن سينا فى الغرب .

لقد أضاف فكر ابن سينا إلى الثروة الفلسفية والعلمية إضافات قيمة جماعته من مفاخر الإنسانية المفكرة .

مراجع البحث :

يوسف كرم : « تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط » .

القاهرة سنة ١٩٤٦

Gilson . dans «Archives d'hist. doct. et litt. du Moyen âge»  
I ( 1926 ) : II ( 1927 ) ; IV , (1929) : VIII (1933) .

R. de Vaux, «L'avicennisme Latin» Paris ( Vrin 1934 ) .

A.- M. Goichon, «La Philosophie d'Avicenne» Paris ( Maison  
Neuve, 1944 ) .

O'Leary, «Arabic Thought, etc.» ( London 1939 ) .

---

## بين « إنية » ابن سينا و « كوجيتو » ديكارت

افتراض ابن سينا « الرجل المعلق في الفضاء »  
وثبوت الإنية مستقلة عن البدن - « الكوجيتو »  
الديكارتي : إثبات وجود الذات في أي فعل من أفعال  
الفكر ، حتى في الشك نفسه - الفصل بين النفس  
والبدن - الفيلسوفان يثبتان أن النفس جوهر روحي  
مستقل عن البدن .

« الإنية » في إصطلاح ابن سينا هي الذات الواحدة المستمرة  
بعينها ، وهي مباينة للموضوع ، مغايرة للجسم ، ويشار إليها في  
اللغة بضمير المتكلم في قوله « أنا » .  
وإثبات الإنية من المسائل التي عني بها ابن سينا بعناية خاصة ،  
وقد أراد به إثبات الشعور بالذات وأن « جوهر النفس مغاير  
للبدن »<sup>(١)</sup> . ولتقرير تلك الحقيقة افترض افتراضاً يُطلق عليه  
اسم « الرجل الطائر » أو « الرجل المعالّق في الفضاء » ، فقال في  
كتابه « الشفاء » ما نصه :  
« يجب أن يتوهم الواحد منا كأنه خلق دفعةً ، وخلق كاملاً .

(١) راجع : ابن سينا : « رسالة في معرفة النفس الناطقة وأحوالها » ،  
نشرة محمد ثابت الفندي ، الطبعة الثانية ، مطبعة الاعتماد ، الفصل الأول ؛ وأيضاً  
ابن سينا : « رسالة أضحوية في المعاد » نشرة سليمان دنيا ، ١٩٤٩ الفصل الرابع.

لكنه حُجِبَ بصره عن مشاهدة الخارجات ، وخلق يهوى في هواء أو خلاء هويّاً لا يصدمه فيه قوام الهواء صدماً ما يهوج إلى أن يحس ، وفرّق بين أعضائه فلم تتلاق ولم تتماس . ثم يتأمل أنه هل يُثبت وجود ذاته ، فلا شك في اثباته لذاته موجوداً . ولا يُثبت مع ذلك طرفاً من أعضائه ولا باطنا من أحشائه ، ولا قلباً ولا دماغاً ولا شيئاً من الأشياء من خارج . بل كان يُثبت ذاته ولا يُثبت لها طولاً ولا عرضاً ولا عمقاً . ولو أنه أمكنه في تلك الحال أن يتخيل يداً أو عضواً آخر لم يتخيله جزءاً من ذاته ولا شرطاً من ذاته . وأنت تعلم أن المثبت غير الذي لم يُثبت والمقرّ به غير الذي لم يقرّ به : فإذا ن للذات التي أثبت وجودها خاصية على أنها هو بعينه ، غير جسمه وأعضائه التي لم تثبت ،<sup>(٢)</sup> ويقول في فقرة أخرى من هذا الكتاب نفسه ما نصه :

« لو خلق إنسان دفعة واحدة ، وخلق متباين الأطراف ، ولم يبصر أطرافه ، واتفق أن لم يمسه ولا تماسه ، ولم يسمع صوتاً ، جهل وجود جميع أعضائه ، ويعلم وجود إنيته شيئاً مع جهل جميع ذلك ؛ وليس المجهول بعينه هو المعلوم وليست هذه الأعضاء لنا في الحقيقة إلا كالثياب »<sup>(٣)</sup> .

(٢) ابن سينا : « الشفاء » طبعة طهران - ١ ص ٢٨١ — ٢٨٢ .

(٣) ابن سينا : « الشفاء » ص ٣٦٣ .

ويقول ابن سينا كذلك في «الإشارات والتنبيهات» :  
 « ولو قد توهمت ذاتك قد خلقت أول خلقها صحيحة العقل  
 والهيئة ، وفرض أنها على جملة من الوضع والهيئة ، بحيث لا تبصر  
 أجزاءها ولا تتلامس أعضاؤها ، بل هي منفردة ومعلقة لحظة ما  
 في هواء طلق ، وجدتها قد غفلت عن كل شيء إلا عن ثبوت  
 إنيتها ، (٤) .

فافتراض ابن سينا للرجل المعلق في الفضاء يبين أن الذات،  
 وهي التي أثبت صاحبها وجودها حين غفل عن كل شيء سواها،  
 مختلفة عن بدنه ، وأن إدراكه لنفسه ومعرفته بوجود إنيته  
 لا يحتاج إلى بدن ؛ فالنفس ندركها إدراكا مباشراً ، ومعرفتها  
 أيسر من معرفة البدن .

ويبين ابن سينا في «الإشارات» ، أيضاً أن الإنسان إن غفل  
 عن كل شيء لا يغفل قط عن وجود نفسه وثبوت إنيته :  
 « ارجع إلى نفسك وتأمل هل تغفل عن وجود ذاتك  
 ولا تثبت نفسك؟ ما عندي أن هذا يكون للمستبصر ، حتى أن النائم  
 في نومه والسكران في سكره لا تعزب ذاته عن ذاته ، وإن لم يثبت  
 تمثله لذاته في ذكره ، (٥) .

(٤) ابن سينا : «الإشارات والتنبيهات» طبع فورجيه، ليدن سنة ١٨٩٢ ص ١١٩

(٥) المصدر نفسه ص ١١٩



وإذن فابن سينا يرى أن أول الإدراكات وأوضحها إطلاقاً هو إدراك الإنسان نفسه ؛ وهذا الإدراك عنده حدسي ، يكون للمستبصر ، ولا يحتاج إلى واسطة ولا برهان ، وهو يقول في الموضع نفسه :

« بماذا تدرك ذاتك ، وما المدرك من ذاتك ، أترى المدرك أحد مشاعرك مشاهدة ، أم عقلك وقوة غير مشاعرك وما يناسبها؟ فإن كان عقلك وقوة غير مشاعرك بها تدرك ، أفوسط تدرك أم بغير وسط؟ ما أظنك تفتقر في ذلك حينئذ إلى وسط ، فإنه لا وسط ، فبقي أن يكون بمشاعرك أو بباطنك بلا وسط ، (٦) .  
فتحن إذن لا ندرك ذواتنا بالحس ولا بالاستدلال ولا بأى واسطة ، وإنما ندركها بالحدس إدراكاً مباشراً :

« فبيّن أنه ليس مدركك حينئذ عضواً من أعضائك كقلب أو دماغ : وكيف ، ويخفى عليك وجودها إلا بالتشريح ؛ ولا مدركك جملة من حيث هي جملة ، وذلك ظاهر لك بما تمتحنه من نفسك وما نهيت عليه ؛ فمدركك شيء آخر غير هذه الأشياء التي قد لا تدركها وأنت مدرك لذاتك ، والتي لا تجدها ضرورية في أن تكون أنت أنت - ولعلك تقول إنما أثبت ذاتي بوسط من

(٦) المصدر نفسه والموضع نفسه .

فعلى : فيجب إذن أن يكون لك فعل تثبته في الفرض المذكور (يعنى ابن سينا فرض « الرجل المعلق ») أو حركة أو غير ذلك ، وأما بحسب الأمر الأعم ، فإن فعلك إن أثبتته مطلقاً فعلاً فيجب أن تثبت منه فاعلاً مطلقاً لا خاصاً هو ذاتك بعينها . وإن أثبتته فعلاً لك فلم تثبت به ذاتك ، بل ذاتك جزء من مفهوم فعلك من حيث هو فعلك ، مثبت في الفهم قبله ، ولا أقل من أن يكون معه لا به ، فذاتك مثبتة لا به ، (٧) .

ويفسر صاحب « لباب الإشارات » كلام ابن سينا بهذا الصدد فيقول : إن الذات « أو المشار إليه بقول أنا » ليس بجسم : لأنى « قد أكون مدركاً لذاتى حال ما أكون غافلاً عن جميع أعضائى الظاهرة والباطنة . فإنى حال ما أكون مهتم القلب بهم أقول : أنا أفعل كذا ، وأنا أبصر ، وأنا أسمع ، وأنا ، جزء من هذه القضية ؛ فالمفهوم من « أنا » حاضر لى فى ذلك الوقت ، مع أنى فى ذلك الوقت أكون غافلاً عن جميع أعضائى . والمشعور به غير ما هو غير مشعور به : فأنا مغاير لهذه الأعضاء . وإن شئت . أمكنك أن تجعل هذا برهاناً على أن النفس غير متحيزة ، لأنى

(٧) المصدر نفسه ص ١٢٠ .

قد أكون شاعراً بمسمى أنا حال ما أكون غافلاً عن الجسم :  
فأنا ووجب ألا يكون جسماً (٨) .

ويظهر أن افتراض « الرجل المعلق في الفضاء » ، وأقوال ابن سينا في إثبات النفس والشعور بالذات قد أثارت عند معاصري الفيلسوف بعض الاعتراضات . لذلك نجده في «المباحثات» يعود إلى تلك المسألة بشيء من الشرح والإيضاح فيقول: « ٣٧٠ مسألة في إثبات النفس على الطريقة التي تشكك عليه فيها من الشعور بالذات عند الفرض الذي فرضه وشرحه في كتاب «الشفاء» قال : المحصل يلزمه أن يمنحن ذاته وشعوره الآن بذاته ، فيتأمل بأن شعوره هو وأن له أعضاء وأفعالاً منسوبة إليه هو شعور بهويته . من طريق الحس ، أو من طريق الاستدلال ، والذي يقع له أنه هو : أهو جملته هذه أو شيء غير هذه الجملة ؟ وكيف يكون المشعور به الذي هو ذاته الجملة ، وكثير ممن يشعر بوجود إنسيته لا يشعر بالجملة ، ولولا النشريح لما عرف قلب ولا دماغ ولا عضو رئيس ولا تابع . وقبل ذلك كله فقد كان يشعر بإنسيته ؛ وأيضاً فإن المشعور به يبقى مشعوراً به حينما ينفصل مثلاً شيء من الجملة انفصلاً يحس به ،

(٨) نثر الدين الرازي : « لباب الإشارات » القاهرة سنة ١٩٥٢ هـ

كما يسقط عضو من مجذوم جذر . ويجوز أن يقع له ذلك وهو لا يحس به ولا يشعر بأن الجملة تغيرت ، ويشعر بذاته أنها ذاته كما كانت لم تتغير . وأما الشيء من الجملة غير الجملة ، فإما أن يكون عضواً باطنياً أو يكون عضواً ظاهراً . والأعضاء الباطنة قد تكون غير مشعور بشيء منها والإينية مشعور بها قبل التشريح ، وما يشعر به غير مالم يشعر به ، والعضو الظاهر قد يعدم ويتبدل ، والإينية المشعور بها واحدة في كونها مشعوراً بها في وحدة شخصية . ثم كيف يمكن أن يقال إن الوصول إلى الشعور بالذات وإنما هو بالحس ، والحس ينال الظاهر الذي هو ذات المشعور ، والأعضاء الباطنة السليمة لا تتحاس وإن تلاقى ؛ ولا ( ينال ) النفس السليمة ، فإن ( ذا ) النفس المطلقة السلامة هو الذي لا يحس بحركة الأعضاء فيه . وكيف يمكن أن يقال إنه باستدلال من الأفعال ؟ وذلك لأن الفعل إذا أخذ أخذاً مطلقاً دل على فاعل مطلق غير معين ، وإذا أخذ مقيداً بالتشخيص مثل فعلى وفعلك ، يكون المنسوب إليه جزءاً من مفهوم الفعل المقيد ، والشعور بالجزء قبل الشعور بالكل ؛ وعلى أنك تعلم من نفسك ان هذا الشعور لم تكسبه عن طريق الاستدلال من فعلك ولا من طريق

الاستدلال من حالك ، إذا كان اعتبارك سديداً ، (٩)

\* \* \*

وأكثر الأقوال التي أوردناها من مؤلفات ابن سينا قد ترجمت إلى اللغة اللاتينية ، فعرّفها فلاسفة العصر الوسيط في أوروبا ونقلها بعضهم بنصها . ومن المحتمل أن يكون ديكارت قد اطلع عليها في كتابات « جيوم الأوفرنى » ، أو غيره (١٠) . ومهما يكن الأمر فإننا نجد شها كبيراً بين « إلانية » السينوية و« الكوجيتو ، الديكارتى » .

و « الكوجيتو » رمز لذلك المبدأ المشهور الذى وضعه ديكارت : « أنا أفكر ، وإذن فأنا موجود » ؛ فكونى أشك يفيد أنى أفكر ، وكونى أفكر يفيد أنى موجود . ويطلق اسم « الكوجيتو » اصطلاحاً على الدليل الذى ساقه ديكارت لإثبات وجود النفس . وهذا الدليل محاولة لإثبات وجود الذات فى أى فعل من أفعال الفكر ، حتى فى الشك نفسه . وليس ثبوت الكوجيتو بالاستدلال ، على الرغم من أنه ورد فى صورة تشعير بذلك ، وإنما ثبوته بالحدس ، أى أننا ندركه « بلمحة من لمحات الفكر »

(٩) « المباحثات » ضمن مجموعة عبد الرحمن بدوى : « أرسطو عند العرب »

ج ١ سنة ١٩٤٧ ص ٢٠٧

(١٠) راجع تفصيل هذا فى الفصل السابق من هذا الكتاب .

فإني في شكى مدرك وجودى ، ووجودى متضمن فى فكرى ، وفكرى حاضر بنفسه حضوراً مباشراً . وأنا أرى فى وضوح أنه لىكى أفكر يجب أن أكون موجوداً ، ولدينا فى الكوجيتو معرفة مباشرة حدسية لوجودنا ، معرفة لطبيعة بسيطة وهى أنيتنا وذاتنا المفكرة (١١).

وقد قال ديكارت فى «المقال فى المنهج» :

« لما أطلت النظر فى حالى ، ورأيت أنى أستطيع أن أفترض أنه ليس لى جسم وأنى لا أشغل مكاناً ، وأنه لا يوجد عالم على الإطلاق ، ولكنى لست بمستطيع من أجل هذا أن أفترض أنى غير موجود ، بل على نقيض ذلك ، إن كوفى أروى الفكر شاكاً فى حقيقة الأشياء الأخرى يقتضى اقتضاء جلياً يقيناً أنى موجود ، فى حين أنى لو وقفت عن التفكير وكان سائر ما كنت تصورته حقاً ، لما ساغ لى أن أعتقد أنى موجود . فعرفت من ذلك أنى جوهر كل ماهيته أو طبيعته أن يفكر ، وأنه ليس فى حاجة لىكى يكون موجوداً إلى أى مكان ، ولا يعتمد على أى شىء مادى ، بمعنى أن النفس التى تقوم لإنيتى متميزة عن البدن تمييزاً ، بل هى أيسر منه معرفة ، وأنه لو لم يكن الجسم موجوداً

( ١ ) عثمان أمين: « ديكارت » الطبعة الثانية سنة ١٩٤٦ ص ١١٨ - ١٢٣

على الإطلاق لكانت النفس موجودة بتامها ، (١٢) .

فظاهر من هذا أن الوجود الذي أدركه حين أدركتني وجود ليس هو وجود جسمي ، بل هو وجود فكري . وأول ما استخلصه ديكارت من مبدأ الكوجيتو هو الفصل الخامس بين طبيعة النفس والبدن ، وإثبات استقلال نفوسنا عن أبداننا . ذلك أن الفيلسوف بعد أن تم له اليقين بأنه موجود تبين أنه يستطيع أن يتصور أنه لا جسم له على الإطلاق ، وأنه ليس في مكان ولا في عالم ، ولكنه ليس بمستطيع مع ذلك أن يتصور نفسه غير موجود . وإذن فالإينية أو الذات المفكرة موجودة حتى لو فرضنا أن البدن غير موجود .

ويقول ديكارت في « التأملات » :

« أفترض أن جميع الأشياء التي أراها باطلة ، وأميل إلى الاعتقاد بأنه ما وجد شيء أبداً من كل ما تمثله لي ذاكرتي بما فيها من أغاليط ، وأتوهم أنني خلوت من الحواس ، وأحسب أن الجسم والشكل والامتداد والحركة والمكان ما هي إلا أوهام من أوهام نفسي » ؛ ويقول كذلك : « الآن سأغمض عيني وسأصم أذني ،

(١٢) ديكارت : « انقال في المنهج » القسم الرابع ( طبعة ادم رناترى م ٦

وسأعطل حواسي كلها ، بل سأححو من خيالي صور الأشياء  
الجسمية جميعاً . . ولكني لا أستطيع أن أتجرد عن الفكر أو  
أنقطع عن إدراك إنيتي ، (١٣) .

وقد بين في « مبادئ الفلسفة » ، أننا « لا نستطيع أن نشك دون  
أن نكون موجودين » ، وأن هذا هو « أول معرفة يقينية يمكن  
تحصيلها » ، وأنا نعرف بجلاء أنه لكي نكون موجودين لا نفتقر  
إلى إمتداد ولا إلى شكل ولا إلى مكان ولا إلى أى شيء آخر مما  
ينسب إلى الجسم ، وأنا إنما نكون موجودين لأننا نفكر .  
ويترتب على ذلك أن فكرتنا عن نفوسنا أو ذواتنا المفكرة سابقة  
على فكرتنا عن أبداننا : ففكرتنا عن إنيتنا أشد يقيناً ، نظراً  
لأننا « قد نشك في وجود أى جسم ونحن مع ذلك على ثقة من  
أنا نفكر » ، (١٤) .

. \* \* \*

إن كلا الفيلسوفين قد بذل مجهوداً نافعاً لبيان حقيقة تدق  
على أفهام الكثيرين : وهي أن النفس جوهر روحاني « غائب عن

(١٣) ديكارت : « التأملات » ، ترجمة عثمان أمين ، القاهرة سنة ١٩٥١

ص ٩٠ و ١٢٣

(١٤) ديكارت : « مبادئ الفلسفة » - الكتاب الأول، المادة ٧ ، ٨



الحواس والأوهام ، كما يقول ابن سينا (١٥) ، وأنها مستقلة عن الجسم استقلالاً تاماً حاسماً ، كما يقول ديكارت (١٦) ومهما يكن من جلاء هذه الحقيقة فإن كثيرين من أهل النظر - حتى بعد ابن سينا وديكارت - لم يتنبهوا إليها، بل إننا نجد اليوم - عن قصد أو عن غير قصد - خلطاً شديداً بين المادة والفكر ؛ وهذا الخلط هو دائماً صميم المذهب المادى : إن من درجوا على النظر إلى الوجود نظرة مادية ، فأضحوا لا يريدون شيئاً إلا في صورة الامتداد المحسوس ، سيجدون نفعاً كبيراً ، إذا تدبروا ما كتبه الفيلسوفان العظيمان ، ولعل في ذلك دفعا لما غاب على أذهانهم من أوهام .

(١٥) ابن سينا : « رسالة في معرفة النفس الناطقة وأحوالها » ص ٩

(١٦) ديكارت : « مبادئ الفلسفة » ، المادة ٢٧ ؛ وأيضاً « التأملات »

التأمل الثالث .

## المثالية الديكارتية

المثالية الحديثة وتقد المعرفة - وصف « كانت » لمثالية  
« ديكارت » - الشك الديكارتى - « التأملات » -  
الكوجيتو - الله - العالم الخارجى - صدق الله ضامن  
للعالم - قوة الذهن - مثالية من نوع فريد .

المثالية الحديثة مختلفة جداً عن المثالية القديمة ، مثالية أفلاطون . وعماد المثالية الحديثة هو ما يسمى الآن « نقد المعرفة » ، ونتيجة هذا النقد مذهب يرى أن عالم الموجودات الخارجية ، « الواقعية » التى نظن أننا ندركها مباشرة وكما هى فى ذاتها ، إنما هو عالم متمثل فى أذهاننا ، أو بعبارة أخرى هو عالم « مثالى » لا واقعى . وقد كان ديكارت أول من قام بنقد وسائلنا فى المعرفة ؛ التفت أبو الفلسفة الحديثة إلى هذا الأمر الخطير قبل « هيوم » وقبل « كانت » ؛ فهو يصرح فى كتابه « مبادئ الفلسفة » بأن اهتمامنا لا يقتصر على معرفة أى الأشياء نستطيع أن نعرف ، بل وأيضاً أى الأشياء « لانستطيع أن نعرف » ؛ وإذن فيهمنا أن نتبين قيمة أفكارنا وتصوراتنا ، ومدى أذهاننا وحدودها . ونجده يفتتح كتابه « فى الكون » بنظرية فى المعرفة ؛ كذلك نجده يتساءل عن الصواب ما هو ، والخطأ ما هو ، وبأى العلامات يستطيع المرء أن يميز بينهما : يتساءل عن ذلك قبل أن ينتقل إلى

موضوعات المعرفة ؛ وهو يعرف الميتافيزيقا نفسها - قبل « كانت »  
وخلافاً للأنطولوجيا القطعية عند الفلاسفة السابقين - بأنها النظر  
في « مبادئ المعرفة البشرية » .

\* \* \*

قال « كانت » في كتابه « التمهيدات لكل ميتافيزيقا مستقبلية »  
إن دعوى المثاليين الأصليين ، منذ المدرسة الإيلية حتى بركلي ،  
متضمنة في القضية التالية : « إن كل معرفة مستمدة من الحواس  
والتجربة إنما هي مظهر زائف ووهم لاحقيقة له ؛ وما للحق  
إلا في معاني الذهن والعقل الخالص » (١) .

وقال في كتاب « نقد العقل الخالص » تحت عنوان « نقض  
المثالية » : « المثالية هي المذهب الذي يصرّح بأن وجود  
الأشياء في الأعيان خارج الأذهان إما أن يكون مشكوكاً  
فيه ولا سبيل إلى إثباته ، وإما أن يكون كاذباً ومحالاً .  
والمذهب الأول هو المثالية « الإشكالية » التي ذهب إليها  
ديكارت ، الذي لا يرى من يقين إلا للقضية : أنا موجود .  
والمذهب الثاني هو المثالية « القطعية » التي ذهب إليها بركلي ، الذي  
يعتبر المكان - مع جميع الأشياء التي هو شرط لها لا ينفصل عنها -

(١) كانت : « التمهيدات لكل ميتافيزيقا مستقبلية تريد أن تكون علماً » ( الترجمة

الفرنسية بقلم جيلان ص ١٧٠ ) .

شيئاً مستحيلاً في ذاته ، وبالتالي يعتبر الأشياء في المكان أوهاماً  
 لاحقيقة لها . . . أما المثالية الإشكالية التي لا أنصرح بشيء  
 عن وجود الأشياء الخارجية وإنما تذهب إلى أننا عاجزون عن  
 أن نثبت بتجربة مباشرة وجوداً خارج وجودنا ، فهي مثالية  
 معقولة وملائمة لمنهج في التفكير فلسفي سليم ، منهج لا يتيح لنا أن  
 نحكم حكماً قاطعاً قبل الاهتمام إلى دليل كافٍ . . . (٢)

فما هي إذن مثالية ديكارت «الإشكالية» هذه التي يتحدث  
 عنها «كانت» ؟

\*\*\*

إن أكثر ما فتن به معاصرو ديكارت هو بداية ذلك الطريق  
 الفلسفي الذي سلكه الفيلسوف في «المقال في المنهج» ، باحثاً  
 عن معيار لليقين ، غير معتمد إلا على محض قواه . فهذا «الشك  
 المنهجي» الذي هو استهلال لإيمان قوى بثبات العلم ، قد بدا لهم  
 تحفة فنية تامة ؛ فكل من حدثته نفسه بأن يتفلسف أصبح لزاماً  
 عليه مراعاة هذه القاعدة الأولى ، وهي أن يضع أولاً موضع  
 الشك جميع آرائه السابقة . لكن «المقال في المنهج» لا يقف  
 وقفات طويلة عند هذا الرفض للأفكار السابقة ، إنه يعدّ من بين

(٢) كانت : «تقد العقل الخالص» ، القسم الأول ، الباب الثاني ، الفصل

الثاني (ترجمة ترمزايغ وباكو ، ص ٢٣٧ - ٢٣٨)

الأفكار التي يوصينا التشكك بأن تتخلى عن الأفكار التي توحى بها اليها حواسنا : « من حيث أن حواسنا تتخدعنا أحياناً ، فقد أردتُ أن أفترض أنه ليس يوجد شيء مثل ما تجعلنا تتخيله... » (٣) ومعنى هذا : أردت أن أفترض أن الموجودات الخارجية لا تشبه الصور الحسية التي أتلقاها منها ؛ وليس معناه : أردت أن أتخيل أنه لا توجد موضوعات خارجية ألبتة . صحيح أن «المقال في المنهج» ، لا يسمح لنا بأن نفترض زيادة على ذلك : فمسألة الوجود الواقعي لعالم خارجي ليست موضوعة فيه صراحة ، (٤) لكن من جهة أخرى يمكن أن نقول إنها سارية في «التأملات» كلها .

\* \* \*

إن كتاب «التأملات» ، عمل فلسفي رفيع إلى أقصى مرتبة ؛ فيه يعود ديكارت إلى إثارة المشكلات التي مسها في القسم الرابع من «المقال» ، مساً رفيقاً :

فالتأمل الأول يضع علامة الاستفهام ، ويتساءل عن الأشياء

(٣) ديكارت : « المقال في المنهج » ، القسم الرابع .

(٤) على الأقل ليست موضوعة قبل ثبوت « الكوجيتو » . على أننا نجد المؤلف يسلم بعد ذلك لا بافتراض بل بتخيل من هذا القبيل : « ولا رأيت أنني أستطيع أن أتخيل أنني ليس لي جسم وليس هناك عالم ولا مكان أنا فيه » ولكن ليس هناك شيء من الشك الواضح القوي الذي يتزدد دويه في «التأملات» بلا انقطاع .

التي يمكن أن توضع موضع الشك . وأول أسباب الشك هو أن حواسنا ، التي كثيراً ما تضلنا ، إنما تنبئنا بما نشعر به لا بما يطابق أحاسيسنا في الواقع . ويتساءل ديكارت أيضاً مع تسليمه بافتراض أن الله قد يحلو له . أن يضلنا : « ماذا عساي أن أعرف إذا كان قد خلق الدنيا بحيث لا يكون هناك أرض ولا سماء ولا جسم ممتد ولا شكل ولا مقدار ولا مكان ، ومع ذلك فإن لدى شعوراً بهذه الأشياء ، وأن جميع ذلك لا يبدو لي مخالفاً لما أراه . . . ؟ » ، ولكن لعلّ ما أعطى وجوده وجوداً افتراضياً إنما هي السماء الظاهرة والأرض التي تبدو للناس ، وبالجملة مجموع هذه الأعراض أو الصفات التي تتصف بها الأشياء التي لدى « شعور » بها ؛ في حين أن « الجواهر » التي تقوم بها هذه الأعراض لا تكون موضوعة موضع الشك . وإذن فالشك لا ينال الجواهر .

والتأمل الثاني يحملنا على الشك في حقيقة الجوهر الجسماني . وقد يخيل إلينا أننا نقرأ « كانت » ، حين نقرأ الصفحات المشهورة التي نجد فيها تحليلاً جميلاً لفكرتنا عن الجوهر : هذه القطعة من شمع العسل ، التي أمسكها بيدي ، ما هي في الحقيقة ؟ يستحيل على مخيالي أن تعرف عنها شيئاً ، ما دامت هذه الملكة لا تدركها إلا إذا منححتها صفات كالطول والحجم واللون . . . وهذه الصفات يمكن أن تستغنى عنها قطعة الشمع دون أن تتغير طبيعتها . فإذا لم

تكن صفة من الصفات التي تكشفها حواسي في قطعة الشمع هي التي تجعلها هي هي ، فما عسى أن تكون إذن ؟

إنها في الحقيقة في ذهني ؛ وإن كل ما نظن أننا نعرفه بتمييز في قطعة الشمع لا يقع تحت الحواس ؛ وإذن فبالذهن وحده نستطيع أن نعرف ماهية الشمعة <sup>(٥)</sup> . ويختتم الفيلسوف تحليله هذا بقوله : « ولكنني حين أميز قطعة الشمع من صورها الخارجية ، وحين أتأملها عاريةً كما لو كنت جرّدت عنها ثيابها ، فمن المحقق أنني - وإن أمكن أن يقع بعض الخطأ في حكمي - لا أستطيع أن أتصورها على هذا النحو بدون ذهن إنساني ، <sup>(٦)</sup> .

ما أيسر ما تقترب نظرة ديكارت هنا من نظرة « بركلي » ، تلك النظرة التي سييسطها في رسالته عن « مبادئ المعرفة الإنسانية » والتي تنتهي إلى أن وجود الأشياء هو كونها مدركة في الذهن ! إن هذا هو المبدأ الذي تقوم عليه المثالية النقدية : إن تصور « الموضوعات » هو عمل ذهني ؛ ومتى تساءل الإنسان نفسه عما إذا كان لذهنه دخل في تصوراته عن المادة نفسها فقد بدأت المادية تهتز أركانها .

(٥) هنا ينهزم الماديون في عقر دارهم ، أي في معرفة الأجسام ذاتها .

(٦) ديكارت : « الأملات » ، التأمل الثاني ( ترجمتنا العربية ص ١٠٥ )

وفي التأمل الثالث يبلغ الشك ذورته . يستعرض ديكارت في ذهنه الآراء التي كان قد تلقاها من قبل ، ويأخذ في مناقشة تلك التي يصفها بأنها آراء « مشكوك فيها وغير يقينية » ، كاعتقاده بالأرض والسماء والكواكب وجميع تلك الأشياء الأخرى التي تنبئنا الحواس عنها ، ثم يقول : « ولكن هنالك أمراً كنت أؤكد به ؛ ولما كنت قد ألفت التصديق به ، فقد حسبتني أدركه إدراكاً واضحاً جداً ، في حين أني في الحقيقة لم أدركه على الإطلاق ، وهو وجود أشياء خارجة عني ؛ وهذه الأفكار صادرة عنها ومشابهة لها تمام المشابهة ؛ وفي هذا كنت مخطئاً ، <sup>(٧)</sup> . ولكي يثبت لنفسه خطأه أخذ يفند كل واحد من الأسباب التي دعته من قبل إلى أن يعتبر وجود هذه الموضوعات الخارجة وجوداً يقينياً ، فقال : « أول هذه الأسباب أنه يبدو لي أن هذا الأمر قد استفدته من الطبيعة . وثانيها أني أجد في نفسي أن هذه الأفكار لا تعتمد على إرادتي . . . » <sup>(٨)</sup> . في هذه الكلمات القليلة لخصت الحجتان الرئيسيتان اللتان يُعترض بهما على المثالية في كل زمان : إحداهما حجة العوام ، وهي مستفادة من اقتناع غريزي مشترك لدى الناس جميعاً ، ويكاد أن يختلط بالآراء الشائعة والإجماع العام ؛ والثانية

(٧) ديكارت : « التأملات » التأمل الثالث ، ( ترجمتنا العربية ص ١٢٥ )

(٨) « التأملات » ، التأمل الثالث ( ترجمتنا العربية ص ١٣١ )



حجة الفلاسفة ، ومدارها فكرة العلية ؛ ويمكن تلخيصها فيما يلي :  
بما أنني أعلم أني است علة هذه الضروب من الأفكار ، فلا بد أن  
يكون مصدرها غيري ؛ وهي حجة لم يكف الواقعيون ، عن  
إيرادها في جميع الأزمان .

لكن لا واحد من هذه الحجج يبطل للنطق الديكارتى :  
فلافتراضات الاستفادة من تعاليم الطبيعة ليست أهلاً للحظوة  
بشرف المناقشة ؛ فهذه الضروب من الميول هي أشد الأشياء  
تضليلاً ، ويشهد بذلك في الأخلاق الميول التي تحملنا على الشر مثلاً  
تحملنا على الخير ، ولهذا لا أرى داعياً إلى اتباعها في أمر الصواب  
والخطأ ،<sup>(٩)</sup> ( أكثر من اتباعها في أمر الخير والشر ) .

أما الحجة المستندة على مبدأ العلية ، والتي تدعى أن هذه الأفكار  
مستمدة من الخارج ، فليست أكثر إقناعاً : فقد يكون في ملكة ما  
أو قوة ، غير معروفة لدى بعد ، تستطيع أن تحدث هذه الأفكار  
دون معونة من الأشياء الخارجية ،<sup>(١٠)</sup> في الحق إن هذا حدس  
ديكارتى خصب يبدو أن فيه إرهاباً بأحد التطورات الرئيسية  
للنقدية الحديثة .

(٩) : « التأمّلات » ( ترجمتنا العربية ص ١٣٢ )

(١٠) : « التأمّلات » نفس الموضوع

ومن ذا الذي يستطيع أن يقطع قطعاً بأن هذه الأفكار التي تخطر لنا، على الرغم منا أحياناً، ليس مصدرها قوة أو ملكة داخلية هي فينا وإن نكن نجهل عملها؟ لا مناص من التسليم بهذه النتيجة: « هذا كله يجعلني أعتقد أن سبيلي حتى هذه الساعة لم تكن سبيل حكم يقيني صدر بعد تأمل، بل كان اندفاعاً أعمى وأهوج جعلني أعتقد بوجود أشياء خارجة عني ومغايرة لوجودي، تستعين بحواسي أو بأى وسيلة أخرى، لتبعث في أفكارها وصورها وتطبع في نفسي أشباهها ونظائرها، (١١) »

ذلك شك ما أعجبه إنه لا يعترف بوجود يقيني خارج إبتنا، كما رأى « كانت، في الفقرات التي أوردناها فيما تقدم. لقد قيل إن الشك الديكارتي شك عابر مؤقت؛ وهذا صحيح بالقياس إلى كتاب « المقال في المنهج،،، ولكننا هنا في « التأملات، نجد ذلك المؤقت يطول أمدّه طويلاً عجيباً: لقد نَفَذَ الشكك واخترق التأملين الأولين، وها هو ذا يسرى في الأمل الثالث سرياناً موصولاً، فلم يتقهقر إلا أمام معنى واحد وفكرة واحدة، هي فكرة الله، أصل كل وجود وكل حقيقة، ثم نراه يبرز من جديد في التأمل السادس.

« لم يبق على الآن إلا أن أفحص عن وجود الأشياء المادية ، :  
 بهذه الكلمات يُفتح التأمل الأخير ، وتقوم عندئذ مناظرة علنية  
 بين الدعويين المتعارضتين ، المثالية والواقعية ؛ ويبدو ديكارت  
 متردداً بين الفريقين ، ولكنه ينضم إلى أحدهما بعد طول عناء .  
 يذكر تأييداً لدعوى « الواقعيين » ، دليلين : أحدهما مستمد من  
 فعل الخيال ، والثاني من فعل الحواس . التخيل عملية مغايرة للتصور  
 أو التعقل ؛ والتعقل جزء من نفسى ، فى حين أن ملكة التخيل  
 « ليست بضرورية لطبيعتى أو لماهيتى ، أعنى لماهية نفسى ، لأنها حتى  
 لو لم تكن لدى لما تغير حالى وليقيت عين ما أنا الآن ، (١٢)  
 أى أنى لن أنقطع عن كونى شيئاً مفكراً ، حتى لو توقفت عن  
 استخدام مخيلتى فى تمثل الأشياء المادية ؛ ويبدو من هذا أنها تعتمد  
 على شىء يختلف عن نفسى . وهنالك تفسير سهل للأفعال التى تقوم  
 بها هذه الملكة فى ، وهو : « أنه إذا وجد جسم قد انصلت به  
 نفسى واتحدت اتحاداً يمكنها معه أن تلتفت إليه متى شاءت ،  
 أمكنها بهذا أن تتخيل الأشياء الجسمانية . . أقول إن من الميسور  
 لى أن أنصور إمكان حصول التخيل على هذا النحو ، إذا صح  
 أن الأجسام موجودة ؛ وعجزى عن أن أجد طريقاً آخر لتفسير  
 حصوله يحملنى على الظن بأها موجودة ؛ ولكن ليس هذا

(١٢) : « التأملات » ، التأمل السادس (ترجمتنا العربية ص ٢٢٤) .

إلا محض احتمال ، (١٣) . وإذن فهذا الدليل ليس بملزم ولا جازم ، إن هو إلا احتمال قيمته افتراضية فحسب ، هو تفسير يرتاح إليه ريثما يهتدى إلى أحسن منه : وإذن فهذه هي الدعوى الموضوعية قد نزلت منزلة احتمالية فقط ؛ وقد صرح ديكارت دون مواربة بأنه لا يسوغ أن نخلع عليها طابع الضرورة أو اليقين . ولنتنقل إلى الدليل المستمد من الإدراكات الحسية . قد يطول إحصاء هذه الأنواع من « الأحاسيس » : إنها انطباعات تندرني بحضور جسمي وبملاقاته بأجسام أخرى وضع بينها ؛ ولذة وألم أحسهما عند اتصالى بهذه الأجسام ؛ وميول طبيعية عندي يثيرها حضور الأجسام ؛ وصفات عامة أنسبها إليها ، كالامتداد والشكل والحركة ؛ وصفات أخص كالضوء والألوان والروائح والأصوات والطعوم . هذه الأحاسيس ألم يكن لدى مسوِّغ للحكم بأنها جاءت من « أشياء متميزة كل التميز عن فكري ، من حيث أنني « وجدت أنها كانت تعرض لفكري دون حاجة إلى موافقتي ، ؟ على أنه لا سبيل إلى الخلط بين تلك وبين ما يصنعه هواي من خواطر أصوغها كما أشاء وأصرف فيها بما يحلولى . وهذه الأفكار الآتية من حواسي والتي هي « أكثر حيوية وأقوى تعبيراً وفي بابها أكثر تميزاً من أي

من تلك الءى أسطفع إفءاءها فف نفسى بالءأمل ، أو من تلك الءى أءءها مطبوءة فف ذاكرءى ، (١٤) كفف فءسنى أن أكون أنا صاءبها وءالقفها ؟ « قء لاء لى أنه لم فكن من الممكن أن تصءر عن نفسى ، وأنها لاءء أن تكون قء أءءءها فف أشفاء أءرى . ولما لم فكن لى معرفة بهذه الأشفاء سوى تلك الءى منءءى إفاءها هءه الأفكار عفنها ، لم فكن من المسطفاع أن فءء على ءهنى شىء سوى أن هءه الأشفاء مشاءبة للأفكار الءى ءءءءها ، (١٥) .

وعلى هءا النءو فعود إلى الظهور ءفلف العلفة الءى أورءه ءفكارء من قبل فف الءأمل الءالء ، وهو ببسطة للمرة الءانفة فف قوءه وفف ضفعه أفضا ، وبطابعه الافتراضى وشرط الالءءاء إلى قوة بعفءة مجهولة . « ولما لم فكن لى معرفة بهذه الأشفاء سوى تلك الءى منءءى إفاءها هءه الأفكار عفنها . . هءه الءءة الاعءراضفة ملفئة بأمور مضمرة كءفرة . ألفس فف مثل هءه الءعبفرات ما فءل بوضوح على مفول ءفر ماءفة صرفءة فف فاسفة ءفكارء ؟ إن فف الإمكان ءرءمة هءه الأقوال على النءو الءالى : إذا كانت الأءسام موءوءة ، فأنا على الأقل لا أسطفع أن أصل إليها فف ءاءها ، ولا أعرف إلا الأفكار الءى ءمءلها فف ءهنى . ولكى أفسر ظهور هءه الأفكار فف نفسى ، فلزمنى أن أفترض ، لمناسبءها ،

(١٤) « الءأملات » ( ءرءءنا العربفة ص ٢٢٩ ) .

(١٤)

(١٥) نفس الموضع .

أن هنالك أجساماً . سيقول « مالبرانش » : لو لم تكن الأجسام موجودة فهذه الأفكار نفسها ربما تكون حاضرة في نفسى مع ذلك ولكن يلزم أن أستنتجها ؛ إن العقيدة تضطرنى إلى ذلك . وسيقول « بركلى » : كلا إن العقيدة لا تضطرنى إلى ذلك أبداً ؛ فانهدام الأجسام لا تتأثر به العقيدة : إن أفكارى هى الأشياء ذاتها ، وإن الأشياء هى أفكارى عنها .

وما يكاد ديكارت يذكر دليل العلية حتى يبادر بتفنيده : فضلاً عن أننا نجرب في كل لحظة قوة الصدق في حواسنا - سواء كانت خارجية أو داخلية ( كخداع البصر ، والالام التى يحسها ميتور الذراع أو الساق فى العضو الميتور ) - نجد أن الحدس التلقائى الذى به نسند أفكارنا الحسية إلى علة بعيدة عنا ، محتاج كذلك إلى ضمان : فإنه على الرغم من أن هذه الأفكار التى أتلقاها عن طريق الحواس « لا تعتمد على إرادتى ، إلا أنه لم يدر بخلقى أن هذا يستلزم أن تكون صادرة عن أشياء مغايرة لى ، بل ربما توجد فى نفسى ملكة - وإن تكن غير معروفة لى حتى الآن - هى علتها والمحدثة لها ، (١٦) .

هذا حدس خلىق بالإعجاب ؛ ينبثق منه الافتراض

(١٦) « التأملات » ( ترجمتنا العربية ص ٢٢٣ )

« الترنسندنتالى ، الجميل الذى سينتهى « كانت ، إليه . لاشك أن المثالية على العموم ، والمثالية الديكارتية على الخصوص ، أو المثالية « الإشكالية ، كما يصفها « كانت ، - - - - - يعنى المثالية التى تجعل وجود الأجسام فى الخارج إشكالاً أو موضع نظر - - - - - قد رجحت من كل شىء فى هذه المناظرة . وسيكون الفلاسفة الإيقوسيون معذورين إذا لم يستبقوا من هذه المناظرة كلها إلا الدفوع الكثيرة الطويلة لمصلحة قضية الشك ، متناسين الحكم الواقعى الذى اختتمت به : لأنهم يرون أن هذه الطريقة فى اثبات وجود العالم المادى معادلة لمحاولة القضاء عليه بلا رجعة (١٧) .

\* \* \*

لقد شك ديكارت فى الحواس وفى وجود الأجسام والعالم الخارجى ، ولم يصل إلا إلى يقين واحد هو يقين الكوجيتو : أنا أفكر فأنا إذن موجود ؛ وأنا أرى بوضوح وتميز أنه لى أفكر يلزم أن أكون موجوداً . والفكرة الواضحة المتميزة : ذلك هو المعيار الذى يعين على بلوغ اليقين . عندى فكرة واضحة عن نفسى باعتبارها شيئاً مفكراً ومختلفاً كل الاختلاف عن بدنى ، باعتبارها شيئاً ممتداً . والموقعة الأولى التى كسبتها المثالية هى أن

(١٧) سيقول « بيانى » : « يجب أن تعتبر الفلسفة الديكارتية أساساً للشك الحديث » ( « الطبيعة وثبات الحقيقة » ، القسم الثانى ، الفصل الثانى ) .

نفسى مغايرة لبدنى ومتميزة عنه ، وأنى أضع وجودى متى وضعتُ  
فكرى . وهذا المبدأ لا ينهض أمامه أى اعتراض حتى ولا حجة  
الشیطان الماكر ، تلك الحججة الخطيرة على البراهين الرياضية والتي  
لا يدفعها إلا الالتهجاء إلى الله . — إن هذا مبدأ واضح متميز بذاته  
ولا يحتاج إلى شيء آخر : إنه عبارة عن امتلاك الفكر بالفكر .  
لكن الذهن لا يستطيع أن يظل دائماً فى دائرة الكوجيتو : فإن  
فكرى بعد أن وضع ذاته موجوداً يطمح إلى النظر فى موجودات  
أخرى جديدة ، ويتوق إلى تشييد بناء العلم ؛ وبعبارة أخرى  
يجب أن ينتقل من فكرة إلى أخرى ، ومن هذه إلى ثالثة وهكذا ؛  
ومعنى هذا أنه سيبعد عن النور الأصيل الذى أمده به «الكوجيتو»  
ومن أجل ذلك كان من الضرورى أن نجد مبدأً مستديماً يودى  
فى طريق التقدم العلمى مثل الوظيفة التى يؤديها «الكوجيتو»  
فى بداية مراحل الاستنباط الميتافيزيقي . وهذا المبدأ الذى يتصل  
بالأول أوثق اتصال والذى يمدّه على طول الطريق العلمى هو  
إثبات وجود الله وكاله المطلق . ولست محتاجاً لكى أقنع نفسى  
بهذا إلى أن أقفز من فكرتى عن كمال الله حتى أصل إلى حقيقة  
الموجود الكامل نفسه<sup>(١٨)</sup>، ولكنى لمست هذا الوجود الواقع

(١٨) يقول « لاشليه » : يجب أن نذكر أن ديكارت كان يعتبر الأفكار  
مرادفة للأشياء ؛ ولم يكن يقبل تعارضاً بين الطرفين . وإذا لم يكن قد انتبه =



في هذه الفكرة ، ولا سيما أنى أدركت مثل هذا التماثل حين أصبت وجودى فى فكرى . ليس علىّ إلا أن أتابع التقدم المستمر لتفكيرى ، وأن أحافظ ، فى هذه السلسلة المنطقية ، على اتفاق عقلى مع ذاته ؛ وأنا حر فى أن أضيف البراهين إلى البراهين ، على شرط أن تكون البداهة التى مبدأها الكوجيتو مصاحبةً لى فى كل خطوة من خطواتى ؛ والآن لن تفارقنى هذه البداهة بفضل الصدق الإلهى .

لقد دأبت الفلسفة الديكارتية على مناهضة الحواس ، ولم تر لها إلا وظيفة المساعدة المحدودة فى وجودنا الجسمانى (١٩) . والمادة عند ديكارت إنما هى عقبة فى طريق المنهج ، والكون الذى يتصوره الفيلسوف أشبه بكون من البلور ، وكل ما فيه شفاف مستعد لأن يتلقى النور من جميع الجهات ؛ ومعنى هذا أنه يجب أن

---

== إلى مثل هذه المثالية الكاملة ، فن الواضح أنها كانت تسيطر على تفكيره . وبدون ذلك يكون انتقال الدليل الأنطولوجى إلى وجود واقعى خارج ذواتنا انتقالاً فاسداً كل الفساد : لم ينتقل ديكارت إلا من ذاتية داخلية إلى موضوعية داخلية أيضاً « ( لاشليه : « دروس عن ديكارت لم تنشر » ألفت بمدرسة المعلمين العليا بباريس ١٨٧٣ ) نقل عن جورج ليون : « المثالية فى إنجلترا فى القرن السابع عشر » باريس ١٨٨٨ ص ٢٣ هامش )

(١٩) ديكارت : « مبادئ الفلسفة » ، القسم الثانى ، المادة ٣ وعنوانها : « فى أن حواسنا لا تعلمنا طبيعة الأشياء ، وإنما تعلمنا فى أى الأمور نمنعنا أو نضرنا »

تكون جميع جوانبه معدة لأن ينفذ إليها الفكر .  
 لسنا نزعم أن العالم الذي تحتاج إليه الفيزيقا الديكارتية عالم  
 عقلي خالص ، بل يكفي أن نقول إنه يشابه كل المشابهة عالماً من  
 العوالم المثالية . ويؤيد هذا أن ديكارت ما كاد يتجه إلى الله ليبرر  
 اعتقادنا بالأجسام ، حتى نراه وقد قنع بأن تكون المادة التي سلم  
 بوجودها أخيراً هي مادة تطيع العلم المجرد ، وتشتمل على جميع  
 الأشياء المفهومة في موضوع الهندسة النظرية ، ؛ وما عدا هذا  
 لا يهتم به الفيلسوف إلا قليلاً<sup>(٢٠)</sup> . إن عالم الأجسام موجود ؛  
 لكنه لا يكاد يثبت وجوده حتى يحيله عالماً مثالياً . فالأجسام  
 جوهرها الامتداد ، لكنه ليس هو الامتداد الحسى بل هو ذلك  
 الامتداد الذهني ، موضوع بحوث صاحب الهندسة . هذا الطابع  
 المثالي لفيزيقاه قد نهه إليه بعض معاصريه : نقرأ في ردرده على  
 اعتراضات « جسندى » قوله : « إن كثيرين من أهل الأذهان  
 الفاتقة يرون في وضوح أن الامتداد الرياضى الذى جعلته مبدأ  
 لفيزيقاى ليس شيئاً آخر سوى فكرى ، وأنه لا قوام له ولا يمكن  
 أن يكون له قوام خارج ذهنى » . وما كان ديكارت ليحفل بمثل  
 هذا الاعتراض ، بل إنه ليسخر منه . وهذا يدل ، في نظر « لاشلييه »

(٢٠) هذه المثالية قد أبرزها لوى ليار في كتابه : « ديكارت » سنة ١٨٨٢ .

علف أنه « ىرى الففرء فى الوءوء للبعقول ، وىءمل هذا علف ءءل الفرفظ ، (٢١) . وءفكارء نفسه لا ففرءء فى أن فقول : « لكنف أءء هنا ما فطفب من ءاظرى فى الإءصال بفن ففزفقاى و بفن الرفاضاى الءالصة . وأملف وطفء فى أن ءكون ففزفقاى ءشابهة لها ، (٢٢) . وففم العءب ؟ إن ءنهء ءفكارء فى ءراسء الطفبعة لا فطمئن إلا إلى ماءة قء بلءء من الروءءانىة أءبر قسط ءمكن ؛ فإءا أءضعها لمطالب النظر والاسءءلال « الأولى » ، فلفس قصءه من ءلك أن فقم « اسقولاسطفقا ، ( ءءرسفة ) هندسة ءءل الاسقولاسطفقا اللاهوءفة الءى نصب نفسه للقضاء علفها ، وإنما أراء ففزفقا ءهنفة ، لأن الطفبعة كما ففهمها وكما فءبها هى أءء الفءكر . فضااف إلى هذا أننا إذا ءكءنا بما نرى فى مراسلء ءفكارء ، وءءنا أن نظرفه عن « فطرفة » الأفكار قلفة الاءفاق مع الءفل الذى أوره لإءباء وءوء الماءة . والءفل الوءفء الذى اعءءء علفه وفه شىء من القوة ، والذى هو فى ءائه ءفل واه إذا لم نلءأ إلى صءق الله ، هو ءفل ءسءء من فءرة العلفة .

(٢١) لا شلفه : « ءروس عن ءفكارء لم ءنشر » ( ءقلا ع : ءورء فون : « الءالفة فى أنءلءرا فى القرن السابع عشر » بارفس ١٨٨٨ ص ٢٨ ) .  
 (٢٢) ءفكارء : « رءوء على ءسنءى » ( « ءؤلفاء ورسائل » طبع مكءبة « البلفاء » بارفس ١٩٤٩ ص ٤٠٦-٤٠٧ ) .

وفي الحق أنه لم يكن بمقدور ديكارت أن يرجع وجود الأشياء المادية إلى سند آمن من هذا . وقد جعل ديكارت لمبدأ العلية مقاماً مرموقاً ونفوذاً بعيداً : جعل له ما لفكرة «الأولية» (٢٣) من قيمة ثابتة لا مرأى فيها ، وجعل مصدره الموجود الكامل ، أى المشيئة الإلهية التى تشعّ منها الحقائق الأبدية ، التى هى نماذج للعالم وللأخلاق . وإذن حقيقة الأشياء المادية لا تجدها ضمناً يسمو على هذا الضمان ، ولكن بشرط أن يكون مفهوماً أن العلة التى هى مصدر أفكارى عن الأجسام لا تقوم فىّ أنا نفسى ، وإلاّ فتكون المثالية الشككية قد كسبت المعركة . ولا محل للشك عند ديكارت فى أن الذهن فى نفسه ليس جديباً ، وأن له قوة على أن يولد من ذاته معانى تخصه وحده وتتميز عن خيالاتنا كما تتميز عن إدراكاتنا الحسية . ومن أجل هذا يبطل سلفاً ما أورده «لوك» من براهين تافهة لمهاجمة المعانى الفطرية . لقد بيّن ديكارت بجلاء أن هذه «الأفكار الطبيعية»

(٢٣) نجد هذا فى «العرض الهندسى» الذى بسط به ديكارت فلسفته إجابة لطلب الأب «مرسن» : فقد وضع فكرة العلية وجعلها «بديهية» تسمو على الشك ، الأمر الذى يعين على رفع الدور ، على الأقل من حيث أن الله الذى ثبت وجوده يكون متصوفاً على أنه علة لوجودنا وامكرتنا عن الكمال (ديكارت : «مؤلفات ورسائل» طبع مكتبة «البياد» ص ٢٨١ بع)

هي عندنا بالقوة . وقال ماسيكره « لينتز ، إن هذه الأفكار فينا بالفطرة ، لا بمعنى أنها مسجلة فينا كما تسجل المراسيم في الوثائق الأميرية ؛ وهو يشبه هذه الأفكار الطبيعية بالاستعدادات الأخلاقية والبدنية الوراثية في بعض العائلات : « لقد سميت هذه الاستعدادات طبيعية . ولكنني قلت ذلك على معنى ما نقول إن السخاء مثلاً طبيعي في بعض العائلات أو أن بعض الأمراض ، كالنقرس أو الحصى البولي ، طبيعية عند عائلات أخرى . . . » (٢٤)

ويكتب بعد ذلك بأوضح مما رأينا : « كما لو كانت ملكة التفكير التي يملكها الذهن لا قدرة لها من نفسها على أن تحدث شيئاً ، فهذه القوة الذهنية الخصوية تعمل في النفس ، لا في فترات معينة ولا بطريقة استثنائية ، بل إنها لتتجلى حتى في الأحوال التي قد يظن فيها أن النفس منفعة ، أعني في المعارف التي تجيء بها حواسنا . وإذن فالإدراك الحسي يكاد يكون في جملته عملاً خفياً من أعمال الذهن الذي قد يتوهم أنه يتلقاه عن الحواس .

معنى هذا أن الموجودات الخارجية خالية من العلية ولا أثر لها في أحاسيسنا ؟ قد يكون في الذهاب إلى هذا القول

(٢٤) ويقول بعد ذلك : « لا أن الأطفال الناشئين في هذه العائلات يكونون مصابين بهذه الأمراض في بطون أمهاتهم ، ولكن لأنهم يولدون ولهم الاستعداد أو القوة على أن يصابوا بها »

تحريف لقصد ديكارت : ذلك لأنه يترك للأشياء الخارجية عملاً ما ، ولكنه ضئيل جداً . وهو يقول : « إن التجربة وحدها هي التي تجعلنا نحكم بأن هذه الأفكار أو تلك التي تكون ماثلة الآن في أذهاننا راجعة إلى أشياء معينة خارج أنفسنا ؛ وليس معنى هذا أن هذه الأشياء قد نقلتها إلى أذهاننا عن طريق الحواس كما نحسها ، بل أنها نقلت شيئاً هياً الفرصة لأذهاننا ، بالقوة الفطرية التي فيها ، أن تكونها في ذلك الوقت لا في وقت آخر ، (٢٥) . على هذا النحو سيتكلم « كانت » ، في « نقد العقل الخالص » ، (٢٦) .

والخلاصة أنه إذا كان ديكارت قد أثبت وجود العالم الخارجي (٢٧) ، فقد بين أننا لا نعرفه مباشرة بالحواس ، ولا نعرفه كما هو في ذاته ، أو على الأقل أن كل ما نعرفه عنه إنما هو الصور الذهنية والأفكار التي في أذهاننا . أما أن هذه الصور وهذه الأفكار تطابق حقائق موجودة في الخارج بأعيانها ، فهذا ما نعرفه معرفة غير مباشرة بواسطة الصدق الإلهي : ذلك أنه لا يمكن أن تكون الأفكار التي منحنا الله إياها ، مع ميل قوى إلى تصديقها ، أفكاراً خداعة .

(٢٥) ديكارت : « مؤلفات » طبع أدام وتانرى ، م ٨ ص ٣٥٨ .

(٢٦) كانت : « نقد العقل الخالص » : المقدمة .

تلك هي المثالية «الإشكالية» التي أشار إليها «كانت» في حديثه عن المثاليات الأخرى واختلافها عن مثاليته «الترسندنتالية» .

إذا كان وجود الذات المفكرة عند ديكارت أمراً إذا يقين مباشراً ، فليس الأمر كذلك بالنسبة لعالم الأجسام في المكان . ولقد سبق ديكارت في هذه المثالية أغلب الفلاسفة المحدثين والمعاصرين ، فكان من الحق والعدل أن يعتبر «أبا للفلسفة الحديثة» .

## « ليبنتز » بين الفلسفة والدين

حياة « ليبنتز » وأعماله - موقفه من التصور الآلى  
للاطبيعة - « الغائية » فى قلب « الآلية » - التوفيق بين  
الفلسفة والدين - الرد على شبهات « بيل » فى مسألة  
الشر - مذهب التفاؤل .

ليبننتز فيلسوف ألماني عاش في النصف الثاني من القرن السابع عشر . ويعتبر هو والفيلسوف « كانت » ، أكبر فلاسفة الألمان ومن أشهر فلاسفة العالم . منحته الله عقلاً واعياً ، واستعداداً عجبياً لفهم الناس وقبول أقوالهم المتباينة ، والتوفيق بين مختلف نزعاتهم ووجهات نظرهم ؛ فكان يقول : إن فى كل رأى وفى كل نظرية - مهما يكن شأنها - شيئاً من الحق ، لو تدبرنا وكنا فى حكمنا من المترئين . وكان يحترم نتاج الفكر أياً كان ، ويأخذ الحكمة أنى وجدها ، وعلى أى لسان وعن أى كتاب . عكف على الاطلاع منذ صباه ، فكان يقرأ كل ما يقع فى يده من الكتب ، وبدأ يتفلسف وهو بعد صبي يافع . وهو نفسه يحدثنا أنه كان يسير فى متنزه مدينة « ليبزج » ، ولما يبلغ الخامسة عشرة من عمره ، فيسأل نفسه : أينجاز إلى فلسفة أرسطاطاليس أم فلسفة ديمقريطس .

برع فى الفلسفة ، وفى العلوم الرياضية ، وفى القانون ، وفى



التاريخ ، وفي فقه اللغة ، وفي جملة فروع المعرفة الإنسانية . وتقلد عدة مناصب ذات بال ، وتقلب في أعطاف النعيم والجاه دهرأ . وإذا كان قد وجد من الفلاسفة والمفكرين أمثال « اسپينوزا ، و « روسو ، من قضى حياة همٍّ وعزلة وانقباض عن الناس ، فإن الفيلسوف « ليبنتز ، قد أقبل على الدنيا خير إقبال ، أو قل إن الدنيا هي التي أقبلت عليه ، فلم يعرف من الحياة غير وجهها المشرق الباسم ، وكان فيها من السعداء الهاتين .

عرف أكثر مفكرى أوروبا في عهده ، وجرت له معهم مراسلات ومناظرات ، واتصل بكثيرين من الملوك والأمراء والعظماء : توثقت الووابط بينه وبين امبراطور النمسا ، وبين بطرس الأكبر قيصر روسيا ، كما لبث مستشاراً وصديقاً حميماً لأمراء هانوفر . وأنشأ أكاديمية برلين ، وسعى للتقريب بين الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة البروتستانية .

كان عالماً ومتديناً ، وقد أسبغ الله عليه خلقاً وفضلاً ، وهياً له ماشاء من مراتب الشرف والإقبال . وإنك لتلح أثر هذه هذه الحياة الباسمة بادياً في سائر ما ألف وصنف ، وبلى وفي تلك الكلمة المشهورة التي طبع بها فلسفته الدينية ، والتي أصبحت من بعدُ حياته شعاراً : « الأمور كلها تجرى على أحسن

الوجوه في أفضل عالم ممكن، (١)  
وقد صنف ليبنتز، في الفلسفة والعلم والدين رسائل وكتباً قيمة،  
كتب أكثرها باللغة الفرنسية، وبعضها باللاتينية وقليلاً منها  
بالألمانية، وأشهرها «مباحث جديدة في العقل الإنساني»، (٢)  
وهو كتاب كتبه ردّاً على الفيلسوف الإنجليزي «لوك»، ثم كتاب  
«تيوديسيه» (ومعناها في اصطلاح ليبنتز «العدالة الإلهية») ثم كتاب  
«موناودولوجيا»، (٣) أو نظرية «الجوهر الفرد».

وكان كريم المعشر، دمتم الخلق، ممن يالفون ويؤلفون،  
وكان يتحاشى أن يؤذى أقل الحيوان شأناً: فكان يأخذ الحشرة  
ليفحصها بالمكروسكوب، ثم يعيدها إلى الورقة التي انتزعها منها  
في رفق ولين.

حفلت حياته بجملة الأعمال، وظل دائماً على الدرس والتفكير  
حتى لقد فاضت روحه ويده كتاب.

\*\*\*

«Tout est pour le mieux, dans le meilleur des mondes (١)  
possibles»

« Nouveaux Essais sur l'Entendement Humain » (٢)

(٣) بالفرنسية Théodicée « تيوديسيه » و « موناودوجيا » ( بالفرنسية

. ( Monadologie

رأى ليبنتز في فلسفة «ديكارت» و«هوبز» و«اسبينوزا» خطراً يهدد ما في الطبيعة من اعتبارات دينية وفنية : لأن أولئك الفلاسفة ، على ما كان بينهم من اختلاف ، يتفقون جميعاً في أنهم أقاموا أو حاولوا أن يقيموا نسقاً أو نظاماً طبيعياً آلياً محضاً ، في تفسيرهم للجانب المادى من الوجود ، أعنى أنهم تصوروا للعالم خلوا من معانى الغاية والتدبير ، وكأنه في نظرهم ليس إلا محض آلة تتحرك كما تتحرك الآلات .

فجاء «ليبنتز» وأخذ على عاتقه أن يتخطى هذا التصور الآلى للطبيعة ، وحاول أن يبين أن القوى التى تعمل فى الآلية نفسها إنما تحددها وتوجهها «الغائية» ، بحيث أن كل تدرج فى العلى والمعلولات ، إن اعتبر من الداخلى ، صار تدرجاً فى الوسائل والغايات ، وأن صميم العالم إنما ينطوى فى كل نقطة على قصد ، ونمو ، وتقدم .

وبفصل هذه الفكرة — التى وفقت بين مذاهب «الآلية» و«الغائية» ، وبين حالات الجواهر الفرد على اختلافها ، كما لامت بين الروح والبدن — ظن ليبنتز أنه يستطيع بها فى الوقت نفسه ، أن يوفق بين العقل والدين ؛ وكان مقتنعاً بأن فلسفته كقيلة يارضاه أدق مطالب الدين وأبعدها . وفى الحق أن ليبنتز

كان مخلصاً في سعيه للتوفيق بين الفلسفة والدين ؛ ولم تغب هذه الفكرة عن ذهنه مدى حياته . ولقد كان يؤمن أن جميع عناصر الكون وذراته مؤتلفة متسقة . وهذا الاتساق الكوني ليس ثمرة تظهر في المستقبل فحسب بل هو كامن في النفوس من قبل ، لكن أكثر الناس لا يعلمون .

\*\*\*

أما المسألة الدينية فقد أثار الكلام فيها « بيل » ، Bayle أحد كبار المفكرين من معاصري ليبنتز وصاحب « القاموس التاريخي النقدي » المشهور . وقد كتب « بيل » بحثاً تناول فيه مسألة العناية الإلهية ، ووجود الشر في الدنيا ، أورد فيه شبه الملحدين والماتوية والإبيقوريين ، وانتهى منها إلى القول بأنه يرى أن الدين والعقل يتعارضان ولا يتفقان ، وإن كان يؤمن بعقائد الدين .

وقد كان لتلك الشبه التي أثارها « بيل » في مسألة الشر أعمق الأثر في نفس ملكة بروسيا تلميذة « ليبنتز » ، فطلبت إلى أستاذها الفيلسوف أن يتولى أبطال هذه الحجج ونقضها ؛ فنهض الفيلسوف لهذه المهمة وصنف باللغة الفرنسية — التي كان يتقنها أيما إتقان — كتابه الموسوم « تيوديسيه » ، أي « العدالة الإلهية » وعنوانه الكامل : « بحث في خيرية الله وحرية الإنسان وأصل الشر » .

بأدر « ليبنز » بنشر هذا الكتاب ، وقدم بين يديه رسالة عنوانها : « مقال في موافقة العقيدة الدينية للعقل » . وفي هذا المقال ترى الفيلسوف يعرض لمزاعم « بيل » ، بصدد الشر والعناية ، وينتهي إلى تقرير تلك النظرية المأثورة في مباحث اللاهوت المسيحي ، وهي أن حقائق الاعتقاد فوق العقل ، ولكنها ليست تنافيه . ثم أخذ ينبّه على وجوب التفريق بين ما هو « فوق العقل » ، وبين ما ينافي الدين ، وأخذ يقسم الحقائق إلى : (١) حقائق عقلية أو أزلية وهي مبنية على « مبدأ الهوية » ،<sup>(٤)</sup> أي أنها ترجع إلى أشياء هي واحدة في ذاتها ومعناها ، والقول بصددها يستلزم التناقض . (٢) حقائق حاصلة حادثة وتقوم على مبدأ « السبب الكافي » ،<sup>(٥)</sup> وضدها لا يستلزم تناقضاً ما .

وليس شيء مما ينبغي الاعتقاد به بجائز أن يناقض النوع الأول من الحقائق العقلية أي الأزلية . فمثلاً وجود الله لا يكون ممكناً إلا إذا لم ينطو مفهوم لفظ الله على تناقض ما ، ولم تتناقض

(٤) وهو القائل على حد تعبير المناطقة المحدثين إن ما هو هو ، وما ليس هو ليس هو .

(٥) Principe de raison suffisante : ويعرفه ليبنز نفسه بأنه لاشيء يحصل مطلقاً دون أن يكون هناك علة أو سبب معين على الأقل ، يبرر لم كان هذا الشيء أولى بالوجود من العدم ، ولم كان هذا على هذا النحو ولم يكن على نحو آخر .

الصفات المنسوبة إليه لكن رأياً من الآراء يجوز أن يكون فوق ما تعلمنا التجربة ، لأن الضرورة العقلية لتسلسل الظواهر - تلك الضرورة التي نجدها عن طريق مبدأ السبب الكافي - هي دائماً محاطة بظروف . فالضرورة المنطقية أو الميتافيزيقية ، لقضية من القضايا تثبت مباشرة أو بالواسطة من امتحان حدود هذه القضية .

أما ضرورة قضية من القضايا بالحاصلة ، فإنما ترجع إلى حوادث سابقة . ولما كانت تلك الحوادث السابقة ليست نفسها ضرورية إلا تبعاً لظروفها ، وهكذا إلى غير نهاية ، فقد جاز أن نقول مثلاً إن عدم قدوم الإنجليز إلى مصر في سنة ١٨٨٢ وإن كان قد تم فعلاً ، يبقى ممكناً لا ضرورياً من الوجهة الميتافيزيقية ؛ ولهذا يصح أن نعرف الحقائق الحاصلة ، أو الجائزة ، بأنها تلك التي لا يمكن الوصول إلى أسبابها الكاملة إلا بتحليل لامتناهٍ يمتنع أن يقوم به العقل الإنساني ، في حين أنه يكفي تحليل محدود لإثبات الحقائق العقلية الأزلية .

ويرى « ليننتز » أن مبادئ علم الطبيعة لا تفسر إلا بفكرة العناية والتدبير الإلهي ، أعني بمبدأ غائي . ومبدأ السبب الكافي - مبدأ الحقائق الحاصلة - يفضي بنا إلى ما وراء التجربة . ثم إن ائتلاف الجواهر الفردة ، والتسلسل القياسي لكل ما يحدث لا يمكن فعلاً

أن يفسر الوجود مطلق ، خلق العالم وفقاً لاختيار حكم سديد ؛ فكل شيء فردي ، وكل حادثة فردية ، في نفسها ممكنة ؛ فلسنا نتوصل إذن إلى إتمام سلسلة العلل والأسباب ، وإرضاء مبدأ السبب الكافي تمام الرضى ، ما لم نرجع إلى سبب أول ، هو سبب لذاته ولا سبب له ، وهو الله .

ويستدل « ليبنتز » على صواب الاختيار الإلهي بقوله :  
 « إن خارج هذا العالم الموجود — أى فى العقل الإلهي — عدداً لا نهاية له من العوالم الممكنة الوجود ، واتى لا يخضع كل واحد منها إلا لمبدأ « عدم التناقض » (٦) ؛ فمن بين جميع تلك العوالم الممكنة ، أيها تقع عليه المشيئة الإلهية السامية ، وأيها يختاره الله فيمنحه الوجود ؟ »

يجيب « ليبنتز » فى غير تردد بقوله :

« إن الحكمة العالية المقرونة بخيرية لا نهاية لها ، لا يعوزها أن تختار أحسن الأشياء . »

وإذن فالله قد خلق بالضرورة أحسن العوالم الممكنة . والعالم الراهن خير ما يمكن أن يكون .

(٦) « Principe de non-contradiction » ونص على أن « قضيتين متناقضتين لا يمكن أن تكونا صادقتين ولا كاذبتين معاً وفى آن واحد » .

وذلك هو مجمل مذهب « ليبنتز » في « التفاؤل » الذي نادى به  
وكان يذاعته من المحسنين .

\*\*\*

وإليك صورة ملخصة من طريقته في الاستدلال على هذا  
المذهب المشهور ، قال : الله هو السبب الأول للأشياء ، فينبغي  
أن يكون ذا كمال مطلق في القدرة والحكمة والخيرية ؛ ولما كان  
الله إنما يتصرف في خلق الأشياء وفق عقله الأسمى اللامحدود ،  
فإن جليل حكمته المقرونة بخيرية لا حد لها ، لا يعوزها أن تختار  
من العوالم أحسنها ، لأنه إذا لم يكن الأحسن من بين جميع العوالم  
الممكنة ، لما اختار الله منها شيئاً ؛ إذن فالله قد خلق ضرورةً  
خير العوالم الممكنة ، أعنى العالم الذي يحقق أكبر قسط ممكن  
من الكمال ، (٧) .

ورب معترض يقول : إذا كان الله قد اختار من بين جميع  
الممكنات أحسنها ، فلم إذن جاء الشر ، ولما كانت الخطيئة ؟ وقد  
كان جائزاً أن يوجد المدبر الأول خيراً محضاً مبرأ عن الشر ؟  
فيرد ليبنتز بأن « تصور عالم ليس فيه شر ولا ألم هو أقصوصة  
من الأفاصيص ، ومحض خيالات (٨) ، ولو محي الشر من الوجود

(٧) ليبنتز : « كتاب العدالة الإلهية » الفقرة ٧

(٨) ليبنتز : « كتاب العدالة الإلهية » الفقرة ١٠



أصلاً ، فحينئذ لم يكن هو هو ، ولم يكن بذلك أحسن العوالم الممكنة ، ولئن كان نحو الشر جائزاً في الوجود المطلق فليس بجائز في الوجود الإنساني ، وهو بطبيعته محدود ؛ ولن يطلب الكمال في شيء إنساني أياً كان ، ولا ينبغي لنا أن نقصر نظرنا على جزء من العالم ، بل يجب النظر إلى المجموع المرتبطة أجزاؤه أو وثق ارتباط ؛ والحقيقة أن أحوال العالم مدبرة بعضها بالقياس إلى بعض أحكم تدبير ، وما قد يبدو نقصاً في الجزء ، يكون في الكل كمالاً .

ألسنت ترى أن الصوت يكون في نفسه « نشاذاً » ، فإذا التأم في مجموع موسيقى حصل منه تأثير شجي رائع ؟ والكل إنما ترتب فيه المدبر القوى الفعالة والمنفعلة ، والسموية والأرضية ، الطبيعية النفسانية ، بحيث يؤدي إلى النظام الكلي ، مع استحالة أن يكون هو على ما هو عليه ولا يؤدي لها ضروراً . على أنه قد يحدث من الشر خير في بعض الأحيان ، والشر في أشخاص الموجودات قليل ، ومع ذلك فإن وجود ذلك الشر في الأشياء ضرورة تابعة للحاجة إلى الخير : كالنار فإن كمالها الإحراق ، والإحراق بالقياس إليها خير وإن كان شرّاً بالقياس إلى المتألم منها .

يقول المعارضون : إن الشر في الدنيا أكثر من الخير وأغلب . ويقول ليبنز بأن هذا خطأ : فالشر كثير ، ولكنه ليس بأكثر

من الخير ؛ نعم إن الأمراض كثيرة والمرضى كثيرون ، ولكنهم ليسوا بأكثر من الأصحاء المعافين . والواقع أن الله قد أسبغ علينا نعماً وخيرات وفيرة ، ولكن قلّة انتباهنا إليها تقلل من شأنها ، والعادة تجعلنا أقل شعوراً بها .

ويقول « بيل » إن الإنسان شقى شرير ، وإن « المستشفيات والسجون منتشرة في كل مكان ، وما التاريخ إلا مجموعة من جرائم الجنس الإنساني ومصائبه » .

فيرد عليه لينتز : « أنا أعتقد أن في ذلك غلواً : فإن في حياة الإنسان من الخير شيئاً كثيراً لا يمكن أن يقاس به الشر ، كما يوجد من المنازل كثرة لا تقاس بها السجون . وعندى أن من عيوب المؤرخين أنهم يهتمون بنواحي الشر أكثر مما يهتمون بنواحي الخير ، <sup>(٩)</sup> »

ولكن كون هذا العالم خيراً العوالم الممكنة لا يعنى أن يكون خلواً من الجوانب السيئة ، مبرأً من الشوائب والعيوب . وهل يستطيع الإنسان أن يقدر الشباب إلا إذا جاوزه إلى سن الشيخوخة <sup>(١٠)</sup> . فلكي يشعر الإنسان بالسعادة إذا أقبلت ، يجب أن

(٩) لينتز : « العدالة الالهية » فقرة ١٤٨ .

(١٠) ولقد ورد في الحديث الشريف ما معناه أن الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى .

يكون قد عرف الشقاء . وبغير الألم لا يكون للذة معنى - لقد حكم على سقراط الفيلسوف بالموت فأودع السجن ، ولبث فيه مقيداً بالأغلال . وروى لنا القفطى أن سقراط حينما فك عنه القيد شعر بشيء من اللذة . فقال أمام جمع من أصحابه وتلاميذه : « ما أعجب فعل السياسة الإلهية ! كيف قرنت الأضداد بعضها ببعض ، فإنه لا يكاد يكون لذة إلا تبعها ألم ، ولا ألم إلا تبعه لذة : فإنه قد عرض لنا بعد الألم الذى كنا نجده من ثقل الحديد فى موضعه لذة » (١١) .

وكم من أناس يبيتون آمنين فى سربهم ، معافين فى أبدانهم ، وهم مع ذلك لا يشعرون بهذه النعمة ولا يشكرون ، حتى إذا مسهم المرض وولت عنهم السلامة ، أصبحوا عليها نادمين . على أننا نعلم أن شراً من الشرور كثيراً ما يكون مصدر خير كثير ؛ ورب غلطة تقع من قائد الجيش فتفضى إلى الظفر فى معركة عظيمة

يجب أن نعترف مع هذا بأن فى الحياة الدنيا مساوىء : وقلقل ، أظهرها ما يصيب الكثيرين من الأخيار من حظ عاثر ، وما يرتع فيه الأشرار من عز وسلطان (١٢) ولكننا نقول

(١١) القفطى : « إخبار العلماء بأخبار الحكماء » .

(١٢) « العدالة الإلهية » : فقرة ١٦ .

مقتنعين إنه إذا كان الكرام الأبرار لا يجدون جزاءهم في هذه الدار ، ففي الدار الأخرى خير عزاء وجزاء : ذلك ما يقضى به الدين والعقل أيضا (١٣) .

من الناس من يحلو لهم دائما أن يشتكوا الأقدار ، ويذموا الزمان . وهذا ناشيء في الحقيقة من ضعف النفوس ، وقلة رسوخ الإيمان ؛ ثم هو جزء من الاعتراض على تدبير الله سبحانه ، وما كانوا فيه من المنصفين . فما ينبغي لنا أن نسلك صراط أولئك المتذمرين الساخطين ، وخليق بنا أن نقبل على الحياة باسمين متفائلين ، وكذلك شأن المؤمنين المحسنين .

♦ ♦ ♦

هذا يحمل لمذهب التفاؤل كما شاء أن يعرضه فيلسوف الألمان ، ونلخصه نحن في تلك الكلمة الإسلامية المشهورة : « ليس في الإمكان أبدع مما كان » . وقد سقناه اليوم في طريق الجمع بين الفلسفة والدين ؛ وقصدنا أن نوفق بذلك إلى أن نرفع شكوك المرتابين ، وندفع عن العناية شبه المنكرين ، ونسرى عن النفوس من وقع فلسفة العابسين المتشائمين ، وعلى الله وحده اعتمادنا وبه نستعين .

## فهرس الموضوعات

صفحة	
٥	الإهداء . . . . .
٧	تقديم . . . . .
<b>الباب الأول</b>	
١٩	المتافيزيقا . . . . .
٥٥	الشك المتافيزيقي . . . . .
٦٨	المشكلات الفلسفية الكبرى . . . . .
٨٨	بين العلم والأخلاق . . . . .
٩٩	مصير الإنسان . . . . .
<b>الباب الثاني</b>	
١٠٩	الحرية عند اليونان والرومان . . . . .
١٢٥	حول تاريخ الفلسفة الأوربية . . . . .
١٣٥	الفلسفة والدين عند فلاسفة الإسلام . . . . .
١٥٩	أثر ابن سينا في الغرب . . . . .
١٧٠	بين ابن سينا وديكارت . . . . .
١٨٢	المثالية الديكارتية . . . . .
٢٠٥	ليبنز بين الفلسفة والدين . . . . .

Bibliotheca Alexandrina



0399824

٢٥

مطبعة نجيم  
ت ٤٧١٩٣

To: [www.al-mostafa.com](http://www.al-mostafa.com)